

فنسان جيسير



الإسلاموفوبيا

المخاوف الجديدة من الإسلام في فرنسا

ترجمة

د. محمد صالح ناحي الغامدي

د. قسم السيد آدم بله

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م



الإسلاموفوبيا



ح المجلة العربية ، ١٤٣٠هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
جيسير ،فنسان
الإسلاموفوبيا، المخاوف الجديدة من الإسلام في فرنسا /
فنسان جيسير ؛ محمد الغامدي ؛ قسم بله – الرياض ، ١٤٣٠هـ
١٩٢ ص ، ١٤x٢١ سم
ردمك : ٢-٣-٩٠٠٦٧-٦٠٣-٩٧٨
١–المسلمون في فرنسا ٢– الإسلام – فرنسا أ. الغامدي ، محمد صالح (مترجم)
٣– الإسلام – فرنسا بله ، قسم آدم (مترجم)
ب – العنوان
ديوي ٢١٠،٩١٤٤ ١٤٣٠/١١٤٨

رقم الإيداع : ١٤٣٠/١١٤٨
ردمك : ٢-٣-٩٠٠٦٧-٦٠٣-٩٧٨

فنسان جيسير

الإسلاموفوبيا

المخاوف الجديدة من الإسلام في فرنسا

ترجمة

د. محمد صالح ناحي الغامدي

د. قسم السيد آدم بله

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م





التـرجمة (١)

الأسعار: ١٠ ريالات أو مايعادلها

www.arabicmagazine.com

لمراسلة المجلة على الإنترنت

info@arabicmagazine.com

الرياض: طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين) - شارع المنفلوطي

تليفون: 966-1-4778990 فاكس: 966-1-4766464

ص.ب 5973 الرياض 11432

المحتويات

❑ الباب الثاني:

الباب الثالث:

الباب الرابع:

الخاتمة:

الملحق:

تقديم

يعاني الإسلام كثيراً من صور نمطية سيئة لدى الآخرين، بل ولدى بعض أبنائــه. ومع تعدد الأحداث المأســاوية التي يكون المســلمون طرفاً فيها، يزداد سوء الفهم والتفسير. وليست أحداث الحادي عشر من سبتمبر هي المنطلق الأول، فالإســلام يمثل- ذهنيا- خطــراً على الكثيرين منذ قرون. ولا يمكــن تجاهل آراء كثير من المستشــرقين والفلاســفة الغربيين الذين لم ينظروا للإســلام نظرة إنصاف. إلا أن ذلك لا ينفي أن الكثيرين من أبناء الإسلام قد ساهموا بقدر كبير في هذا التصور الخاطئ. فمشاركتهم حالياً، للأســف الشــديد، ضعيفة جداً في الحراك العلمي والاجتماعي والفكري على مســتوى العالم، ما يجعل المخاوف من الإسلام مسيطرة في كثير من المجتمعات الغربية التي لم تســتقبل الإســلام بطريقة صحيحة وواضحة، ســواء أكان ذلــك بخطــأ منهــا أم بخطأ من أبنــاء المســلمين. إلا أن هناك مخاوف جديدة من الإســلام برزت ونقصد بهــا تلك التي تتعلق بالجانب المهنــي. إذ أصبح الإســلام محددا جوهريا للتعامل مع الغربيين المســلمين أو العــرب المهاجرين في أماكن العمل. كما أن ســيطرة كثير من المثقفين المناهضين للإســلام على وســائل الإعلام أوجد نوعا مــن المخاوف المبطنة من الدين الإســلامي يقدمه هؤلاء على أنه خطر قادم يجب الوقوف أمامه وعــدم إتاحة الفرصة له للظهور على الســاحة. وهذه المخاوف التي تتخذ شــكلا ثقافيا تشــير أحياناً إلى عملية أداتية لأغــراض أخرى، فقد تكون أداة نفي لأغراض أقلية تحاول أن تبقى على الساحة بوصفها الأكثر تعرضاً

للاضطهاد والضحية الشرعية الوحيدة للعنصرية والكراهية (ويتجسد ذلك في الجالية اليهودية)، وأحياناً أداة تحقيق مصالح انتخابية أو مصالح مهنية، خاصة من بعض أبناء العرب في الغرب...

وهذا الكتاب الذي نقدمه للقارئ العربي يحاول أن يقدم تحليلا دقيقا لما يسمى بالمخاوف الجديدة من الإسلام (**La Nouvelle Islamophobie**). ويقوم هذا التحليل على متابعة ميدانية وقراءات عديدة لخطاب كثير من المثقفين البارزين إعلامياً على الساحة الفرنسية من أطياف ثقافية وفكرية وعرقية مختلفة، الذين يؤدون دوراً كبيراً في توجيه الرأي العام. وما انتهى إليه هو أن الكثير من تحليلات هؤلاء المثقفين سطحية، ولا تقوم على عمل واستقصاء، بل إنها تتناول إسلاماً خيالياً متصوراً، ليس هو الإسلام الذي يدين به أكثر من مليار مسلم. أي أن هناك إشكالية كبيرة تكمن في القراءة والتأويل والتفسير من زوايا متعددة ولأسباب مختلفة، أغلبها مبطنة.

يتكون الكتاب من أربعة أبواب ومقدمة وخاتمة، مع ملحق وضعه المترجمان ويحوي وثيقتين وضعهما المؤلف في ثنايا الكتاب.

الباب الأول يحمل عنوان: المخاوف الإعلامية من الإسلام: الصحفيون والمثقفون المعنيون.

الباب الثاني تحت عنوان: خبراء الخوف الجدد.

الباب الثالث بعنوان: المعاداة الجديدة للسامية، أهي من فعل المسلمين؟

الباب الرابع تحت عنوان: مسلمون لديهم مخاوف من الإسلام.

وكما نلاحظ فهذه عناوين فيها الكثير من التشويق لمعرفة ما تستدعيه دون التعليق عليها، تاركين ذلك لحصافة القارئ، وسنكتفي بالإشارة إلى بعض التفصيلات المنهجية التي اتبعناها خلال إنجاز عملنا:

- أولاً: العنوان. فالعنوان الأصلي هو «المخاوف الجديدة من الإسلام» ولكننا رأينا إضافة عبارة «في فرنسا» زيادة في التحديد للقارئ الذي يشكل العنوان له العتبة الأولى لمحتوى الكتاب حيث إنه «يعلو النص ويمنحه النور اللازم لتتبعه»[1]. فالعنوان الأصلي مفهوم تماما عندما لا يخرج من سياقه اللغوي والجغرافي، ولكن بمجرد انتقاله إلى لغة أخرى ومتلق غير فرنسي فإنه قد يحيل إلى عوالم مختلفة، وربما إلى بعد دولي. لذلك رأينا أن يكون العنوان «الإسلاموفوبيا المخاوف الجديدة من الإسلام في فرنسا».

- ثانياً: نقل الاسم العلم الأجنبي للعربية. لقد اتبعنا في كتابة الأسماء رسمها العربي متبوعاً بالرسم اللاتيني بين قوسين مرة واحدة، ذلك أن إعادة كتابتها بذات الطريقة في كل مرة أمر مزعج للقارئ. أما في الهامش فقد حافظنا على كتابة الاسم بالرسمين العربي واللاتيني. وفيما يتعلق بأسماء الصحف والمجلات، التي كثيراً ما يحيل إليها المؤلف، أبقينا على كتابتها بالرسم اللاتيني فقط بين قوسين، كمجلة (**Le Point**) مثلا. وذلك لأن ترجمة اسمها لا تحمل أي دلالة ذات بال، وكتابتها بالرسم

(١) عبد الفتاح كيليطو، الغائب، دراسة في مقامة الحريري، الطبعة الثانية، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٩٧.ص. ٢٨).

العربي تجعل نطقها يختلف في أحيان كثيرة.

- ثالثاً: الاستشهادات الطويلة. يقدم المؤلف وثيقتين كاستشهاد منه بكتابة بعض المثقفين الفرنسيين الذين يتخذون موقفا من الإسلام، وبسبب طولهما تم تخصيص ملحق لهما في نهاية العمل، لمزيد من الإيضاح، على الرغم من أن المؤلف وضعهما داخل إطار في ثنايا الكتاب (ص ٣٤-٣٥ و ص ١١١).

- رابعاً: اختلفنا - نحن المترجمين- حول نقل كلمة «Islamisme» وبعض المفردات الخارجة منها مثل «Islamiste»... للعربية. فهل تترجم مسلمة، إسلامية، إسلاموية، أو حركات إسلامية؟ والواقع أن الكلمة تحيل إلى مفهوم الحركات والمنظمات الإسلامية التي لها أهداف سياسية واجتماعية... لذلك رأينا استخدام مفردة «إسلاموية» تمييزاً لها عن مفردة «إسلام» التي قد تحيل إلى معانٍ متعددة. هذا الاختيار يعود لكون هذه الكلمة أصبحت متداولة وشائعة بين المثقفين والمتابعين للشأن الإسلامي، وبالتالي رأينا ألا نعمل على خلط الأمر على القارئ المتابع.

ونحن في ترجمتنا هذه محايدون جداً وبعيدون عن أي تلاعب بالألفاظ، شبيه بذلك الذي نجده عند ألكسندر دل فال (Alexandre Del valle). فهذه الكلمة لدينا لا تحمل أي دلالات سلبية أو إيجابية وإنما تحيل إلى مفهوم ومجموعات ومنظمات موجودة في المجتمعات العربية والغربية. والشيء الوحيد الذي لا يمكن أن نكون محايدين فيه هو فكرة استخدام العنف للوصول إلى الغايات، سواء أكان ذلك في البلدان الغربية أم في العالم العربي والإسلامي. فنحن وإن كنا نعتقد بأحقية كل من لديه القدرة

والكفاءة للعمل للصول إلى غاياته، إلا أننا لا نرى أي حق في الغوغائية والهمجية وإرهاب الناس والذي أصبح ظاهرة عالمية يجب فصلها بحزم عن الإسلام.

وهذا الحياد في الترجمة دفعنا إلى أن نقدم النص الأصلي على وضعه وتسمية الأشياء بأسمائها على الرغم مما في بعض هذه الآراء أو المسميات من تعبيرات صادمة غير مقبولة ولكن هذا هو واقعها وفق منظورهم، وأي تخفيف للعبارة أو تعديل للمسميات فضلاً عن خيانة أمانة الترجمة تؤدي إلى عدم نقل صورة الإسلام من خلال رؤيتهم بصورة دقيقة والمهم هو أن نلقي الضوء على مخاوفهم وأفكارهم حتى نعرف كيف ينظر الآخرون إلينا وكيف يفكرون.

ختاماً، نشكر كل من اطلع على هذه الترجمة وكل من ناقشناها معه وقدم لنا رأياً فيها، حيث كان لجميع الآراء فائدة كبيرة في الخروج بهذا العمل في صورته النهائية. وبما أن الترجمة دائماً عمل ينقصه شيء ما، كالصورة التي ليست هي الأصل، فإننا نستميح القارئ العذر، فلقد أدينا جهدنا وهو جهد مقل، كان الهدف منه تقديم كتاب مفيد ينقل صورة لجزء مما يدور في المجتمع الفرنسي فيما يتعلق بالإسلام. ونأمل أن نكون قد وفقنا في ترجمة واضحة لعمل صدر بلغة أجنبية، يمكن أن يستفيد منه القارئ العربي. وحسبنا نصيب المجتهد إن أصبنا أو أخطأنا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المترجمان



المقدمة

المخاوف من الإسلام على الطريقة الفرنسية

أوردت اللجنة الوطنية الاستشارية العليا لحقوق الإنسان (CNCDH) ، التابعة لرئيس الوزراء، في تقريرها لعام ٢٠٠١ أن « الأحداث الجارية تؤثر أيضاً على طبيعة الأهداف المختارة. وإذا كان المغاربة وأبناء الضواحي المنحدرون من أصول عربية مهاجرة هم المستهدفون حتى الآن أكثر من غيرهم، إلا أن أعمال العنف هذه توسعت لتشمل الجاليات العربية الإسلامية [...] »[1] . وقد أكدت هذا التطور أيضاً شبكة المعلومات الأوروبية حول العنصرية والكراهية (RAXEN) ، والتي قامت في صبيحة أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ، بدراسة غطت الخمس عشرة دولة للاتحاد الأوروبي ، بينت أنه « في جميع دول الاتحاد الأوروبي تم استغلال الأحداث من قبل التوجه الخائف من الإسلام بصورة مبطنة وذلك في سبيل الإعلان عن ذاته مستخدماً أشكالاً متعددة من الاعتداءات الجسدية واللفظية ». هذه الأحداث وغيرها من المؤشرات توضح أن الشرخ كبير بين الأقليات وبين السكان ككل »[2] . بل لقد

---

(١) اللجنة الوطنية الاستشارية العليا لحقوق الإنسان (CNCDH) ، تقرير ٢٠٠١ ، يمكن الحصول عليه من موقع :

www.commission-droit-homme.fr

(٢) شبكة المعلومات الأوروبية حول العنصرية والكراهية (RAXEN) ردة الفعل المعادية للإسلام في الاتحاد الأوروبي بسبب الاعتداء الإرهابي ضد الولايات المتحدة :

Réactions anti-islamiques dans l›UE à la suite des actes terroristes commis à l›encontre des Etats-Unis) ، نوفمبر ٢٠٠١ . وقد أشرفت وكالة تطوير العلاقات البين ثقافية (ADRI) على التقرير الوطني للوضع في فرنسا .

تطـورت الظاهرة لدرجة أن المفوضية الأوروبية في بروكسـل قد شـعرت بالحاجة إلى تنظيم ندوة طاولة مسـتديرة في فبراير ٢٠٠٣ حول موضوع المخاوف من الإسلام (L›islamophobie)[١].

وإن كانـت فرنسـا لا تتمايز بصـورة خاصة عن باقي الـدول الأوروبية في حدة هذه «الموجة الجديدة» من المخاوف من الإسـلام[٢]، إلا أن الجدال المتعلـق بوضع الإسـلام في المجتمـع، والظهـور الواضح للمسـلمين في الفضاء العام، يكتسيان فيما يبدو حلة عاطفية أكثر وضوحا مما نجده عند جيرانها. وبصورة عامة، إذا كانت الهجمات ضد الأشخاص والممتلكات الإسـلامية فـي البلـدان الأوروبيـة الأخرى تعـود، في أغلبها، لأسـباب تقليديـة كالعنصرية ضـد المهاجرين ورفض الأجانب، فـإن المخاوف من الإسـلام «على الطريقة الفرنسـية» تعود إلى رفض تاريخي يعد الإسـلام فيه دينا في طريقه إلى أن «يكون له صبغة فرنسـية» ممثلا في ذات الوقت «مشـكلة وطنية». وقد يكون في هذا عنصر يؤكد «الاسـتثناء الفرنسي» فيما يتعلق بالمخاوف من الإسلام: ففي الوقت الذي أوشك فيه الإسلام أن يصبح حقيقة وطنية وفرنسية - فرنسية، نجد تشكل رفض واضح للدين، كمـا لو أن العنصرية بوصفها شـيئا بدهيا أصبحـت تبحث عن «غنيمة» جديدة لعدائها: فكان الدين الإسـلامي محددا لهوية غير قابلة للاختزال عند حد « النحن» و « هم».

---

(١) طاولة مستديرة عن «المخاوف من الإسلام» (L›islamophobie)، نظمها الاتحاد الأوروبي مع شبكة المعلومات الأوروبية (RAXEN)، بروكسل، ٦ فبراير ٢٠٠٣.

(٢) وفقا لشبكة المعلومات الأوروبية (RAXEN) فإن عدد الاعتداءات المعادية للإسلام قد تكون نسبتها أكثر ارتفاعا في الدنمارك وهولندا.

الانتقال إلى الفعل:

تكرار الأحداث المتنوعة المرتبطة بالمخاوف من الإسلام

على كل فإن النقاش حول مكان الإسلام والمسلمين في « الجمهورية » لا يتوقف عند الحوارات النظرية والأكاديمية. ولو كان كذلك، لما فكرنا- ربما - في تسطير هذا الكتاب. فمنذ عدة سنوات نستطيع ملاحظة أشكال من « الانتقال إلى الفعل » لا يستهدف فقط رموز المهاجرين (بيوت المساعدة «سوناكوترا»، منظمات مساعدة الأجانب، ...وغيرها)، وإنما الدلالات الظاهرة لعملية استقرار الواقع الإسلامي في المجتمع الفرنسي أيضاً: صالات الصلاة، والمساجد ومحلات بيع السلع الحلال. في هذا الإطار، وقد يكون هذا أحد أهم أفكار هذا الكتاب، لا تمثل المخاوف من الإسلام مجرد انتقال العنصرية إلى كل من هو عربي أو مغاربي أو من أبناء الضواحي فحسب، ولكنها مخاوف من الدين (**religiophobie**) أيضاً. بالتأكيد يمكن لهذه المخاوف أن تتداخل مع مظاهر تقليدية للعنصرية وكراهية الأجانب[1]، إلا أنها تنتشر بصورة مستقلة، وهذا ما يفسر أن

(١) في تعريفه للخوف من الإسلام (**islamophobie**) يوضح مركز تساوي الفرص والعمل ضد العنصرية في بروكسل (- C CLR)، هذا التداخل بين أنواع العنصرية المختلفة: «الخاوف من الإسلام= كراهية، رفض لإسلام مختزل في شيء سيء التأثير، في حين أن الإسلام في حقيقته متعدد سواء على المستوى الاجتماعي، أو الجغرافي، أو التاريخي، أو الثقافي. هذه الكراهية يتم تغذيتها بواسطة أحكام مسبقة سلبية تمارس غالبا نوع من الخلط بين «الإسلام، والعرب، والمسلم، والإسلاموي، والإرهابي، والأصولي» وكذلك بين الثقافة والدين»، في معجم «المصطلحات الاحترام المتبادل»، (**Lexique Respect mutuel**) مادة «الخاوف من الإسلام»، موقع: www. antiracisme. be.

بعض الناشطين المتعاطفين لديهم «مخاوف من الإسلام». وهنا يظهر التناقض العميق: ففي الوقت الذي نجد فيه أن غالبية أبناء المهاجرين، الأفارقة والمغاربة والأتراك، اليوم مواطنون فرنسيون، فإنهم لا يزالون يصنفون على أنهم «شباب عرب مسلمون»، وفي هذه عملية وسم تدمج مرجعية عرقية (العرب) مع مرجعية دينية (الإسلام)، دون تجاهل مفهوم «فتوة الشباب» بالطبع، والذي يعتبر عنصراً يحمل فكرة عدم التقيد بالنظام. هذه الإشكالية المسماة «التهديد العربي الإسلامي الجديد» تبرر عند أصحابها نوعاً من السياسة الدفاعية والعقابية ضد كل الرموز المرئية ذات الصبغة الإسلامية. وحتى قبل ١١ سبتمبر، فمنذ يناير ٢٠٠١ إلى ٢٠٠٣، تم رصد خمسة عشر اعتداء على أماكن عبادة إسلامية، بعضها في شكل بسيط كدهان الواجهات بالألوان الأحمر والأزرق والأبيض (كما حدث في جامع ليون الكبير)، وبعضها كالإحراق المتعمد (كما حدث في مدن اليس لا غراند كومب، بيلي، انسي، روليو لا باب، إلخ)، أو كإلقاء قنابل مولوتوف (كما جرى في مدن سانت إتيان، إسكودان، شالون إن شامبان، إلخ)، أو إرسال مظاريف مفخخة إلى مسؤولي المنظمات الإسلامية (كما في حالة منطقة بربينيان)[1].

(١) انظر تقرير (CNDCDH)، ٢٠٠١، سابق؛ تيرنيزيان (Xavier TERNISIEN)، «تزايد الاعتداءات ضد المساجد» (Les violences contre les mosquées se multiplient)، صحيفة (Le Monde)، ٤ مايو، ٢٠٠٢؛ أليس جيرو (Alice GERAUD): «كراهية ثلاثية اللون ضد مساجد ليون» (Haine tricolore contre la mosquée de Lyon)، صحيفة (Libération)، ٣٠ ديسمبر، ٢٠٠٢؛ أوليفييه بيرتران (Olivier BERTRAND): «مسجد آخر مستهدف قرب ليون» (Une autre mosquée

ووفقـا لحركـة «مناهضـة العنصريـة ومن أجـل الصداقة بين الشـعوب (MRAP)»، قـد يرجـع هذا الانتقال إلـى الفعل في جـزء كبير منه إلى التشـجيع الذي تمارسـه مواقع شـبكة الإنترنـت، ذات التوجه العنصري المتخـوف من الإسـلام، والتي تنتشـر داخل حركة يمينيـة التوجه وبعض الأوسـاط الصهيونية المتشـددة[1] على شـبكة ليبرتي ويب (Liberty-Web): حيث يبث هذا الموقع، منذ ما يزيد عن عامين، ودون أن يتعرض لأي عقوبة، دعوات للقتل مع التشـجيع والتنظيم اليومي [...] للتحرك ضـد السـكان من المهاجرين وبصـورة خاصة الأقليات المسـلمة"[2]. إن تحليـل محتوى هذه المواقع العنصرية[3] يبـين بجلاء عملية تحول تدريجي مـن الأسـلوب التقليدي لمعـاداة المهاجريـن والأجانب في اتجاه أسـلوب مضاد للإسـلام حصرياً، كما لو أن كراهية الإسـلام والمسـلمين أصبحت «نقطـة لقاء سـخرية» القوميين المتشـددين. ومن جهة أخـرى، يبدو أن هذه المخاوف من الإسـلام تنغـرس داخل ذكريات مؤلمـة مرتبطة بالحرب

---

visée près de Lyon)، صحيفة (Libération)، ٣١ ديسمبر ٢٠٠١.

(١) أكزافييه تيرنيزيان (Xavier TERNISIEN)، «موقع انترنت يربط بين الصهيونية المتشددة واليمين المتطرف» (Un site Internet fait le lien entre sionistes radicaux et extrême droite)، صحيفة (Le Monde)، ٢٣ أغسـطس، ٢٠٠٢. انظـر فـي ذات العدد افتتاحية الصحيفة بعنـوان «الدعاية العنصرية» (Propagande raciste).

(٢) الحركـة ضـد العنصريـة ومن أجـل الصداقة بـين الشـعوب (MRAP)، «العنصرية ضد الإسـلام: من الافتراضي إلى الواقع» (Racisme anti-musulman : du virtuel au réel)، بلاغ ٣٠ يناير، ٢٠٠٣.

(٣) نذكر منها على سبيل المثال: «contreislam.org»، «sos-racaille.org»، «ennemiin-terieur.org»، «-ou ma.org» (تحوير للموقع الإسلامي: «oumma.com»)، «islam.verité.org»، «algerie.française.org»، وغيرها.

في الجزائر. فبعض هذه المواقع تخصص جزءا كبيرا من كتابتها ووثائقها وصورها للقتل الذي مارسته جبهة التحرير الوطنية (FLN)، والذي تصفه بـ«الإبادة الجماعية» ضد الشعب الفرنسي: «مرحبا بكم في موقعنا... إن هدفنا الرئيس هو أن يعرف العالم الإبادة الجماعية، التي لم تعترف بها الحكومتان الفرنسية والجزائرية، والتي تعرض لها المسلمون الفرنسيون، والحركيون، وذوو الأقدام السوداء»[١]. ورغم تنامي هذه الظاهرة، فأن هذه الأشكال المتشددة والمدمرة من المخاوف من الإسلام لا تزال هامشية في المجتمع الفرنسي. إنها تعبير عن مجموعات طائفية (groupuscule) مرتبطة بأوساط الفاشية الجديدة التي تحن للجزائر الفرنسية. بعض «الصبية» يواصلون على الإنترنت المعركة التي قادها آباؤهم قديما داخل منظمة الجيش السري (OAS)[٢].

إلا أن التطور الأكثر خطورة- هذه السنوات الأخيرة- هو نمو «خوف من الإسلام في أوساط العمل»، وتدعمه بصورة غير مباشرة بعض الشخصيات العامة المعروفة.

(١) نص مأخوذ من موقع «www.algeriefrancaise.org».

(٢) منظمة مسلحة سرية أنشئت عام ١٩٦١ في الجزائر عن طريق مجموعة من المدافعين عن استعمار فرنسا للجزائر. (المترجمان).

وجه جديد للتمييز العنصري:

«المخاوف من الإسلام في أوساط العمل»

درس علماء الاجتماع كثيرا ظواهر التمييز العرقي التي تحدث داخل إطار العمل[١]. ومع ذلك فهناك عامل لم يتم التطرق إليه باهتمام في حد ذاته: إنه الانتماء الديني للأفراد. من الصعب جداً- بالتأكيد- فصل هذا العامل عن الأشكال الأخرى للتصنيف (العمر، الجنس، الأصل، مكان الإقامة... إلخ)، إضافة إلى أنه لم تتم الإشارة إليه بصورة صريحة من قبل الضحايا أو من يقومون به. إلا أنه ومنذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، لم يعد بالإمكان تجاهله. إذ إنه كان وراء الإقصاء المؤقت أو النهائي لموظفين من عملهم بسبب ممارستهم أو انتمائهم «الواضح جدا» للدين الإسلامي. هذه الأمور نادرة الحدوث- بالطبع- لكنها تفصح عن بعض التهيؤات المتعلقة بالمخاوف من الإسلام داخل بعض الأوساط المهنية. غير أن دق ناقوس الخطر لم يأت من المنظمات المناهضة للعنصرية، أو عن طريق المنظمات الإسلامية - التي تبدو سلبية تماماً في مجال محاربة المخاوف من الإسلام - وإنما أتى من النقابات العمالية تحديداً: «يؤكد الأمين العام المساعد للاتحاد الوطني للنقابات المستقلة جاك ميريه (Jacques Méret) أنه منذ الحادي عشر من سبتمبر تم الطلب من العديد من الشركات المتخصصة في توفير موظفي الأمن

---

(١) فيليب باتاي (Philippe BATAILLE)، العنصرية في العمل (Le racisme au travail)، دار نشر (la Découverte)، باريس، ١٩٩٧.

والاستقبال، أو النظافة، في المؤسسات الخاصة والحكومية، أن تغير التركيبة العرقية لفرق العمل التي توفرها»[١]. ومن ضمن الجهات التي وجهت هذا الطلب يذكر المسؤول النقابي: مطار باريس، ووزارة الأشغال ومجموعة من المؤسسات الموجودة في أبراج لاديفانس (محافظة السين العليا). ويبدو أن هذا النوع من الإقصاء، القائم على معايير عرقية ودينية، أصبح نوعا ما، ممارسة شائعة في بعض مؤسسات النقل الجوي. ففي يوليو ٢٠٠٢ تم رفض تجديد بطاقة الدخول لمهندس كهربائي للأنظمة الأمنية الجوية في مطار رواسي شارل ديجول، وذلك بحجة أن ممارسته الدينية لا تتوافق مع طبيعة عمله. وقد حدث الرفض بعد تقرير من شرطة المطار والحدود (PAF) ومذكرة من الاستخبارات العامة[٢]. إن الأمر بلغ ذروته بالتأكيد من خلال «قضية عبد الرزاق بوصغير»، وهو الحمّال في مطار رواسي الذي اتهم، بعد مسألة عائلية ملفقة، أنه عضو في جماعة إسلامية إرهابية، وأنه كان يجهز لعملية تفجير في حرم المطار. وبرئت وقتها ساحة هذا الحمال، لكن قضيته ستبقى في «حوليات المخاوف من الإسلام في فرنسا». لقد كانت ممارساته التعبدية المزعومة موضوعاً يستخدم باستمرار للتضييق عليه[٣]. ولو أن سوء الحظ

(١) ورد في ناصر نغروش (Nasser NEGROUCHE)، "عذر الإرهابي من أجل عنصرية مناهضة للمغاربة" (Alibi terroriste pour racisme antimaghrébin)، صحيفة (Le Monde Diplomatique)، نوفمبر ٢٠٠١.

(٢) نيكولا موم (Nicolas Mom)، «طرد السحرة من مطار شارل ديجول» (Chasse aux sorcières à l›aéroport Charles-de-Gaulle)، (Sophinet)، ٢٣ ديسمبر ٢٠٠٢.

(٣) انظر الدور السيئ الذي لعبته صحيفة (Le Parisien) في هذه القضية، والتي ساهمت أكثر من مرة في خطاب المخاوف من الإسلام؛ عبدالرزاق بوصغير، عزيز زيموري، حمال في رواسي. إرهابي محتمل (Abde-

جعل من بوصغير مسلما ممارسا يذهب إلى المسجد، ويؤدي صلواته خمس مرات في اليوم، لبقي ربما في السجن إلى اليوم.

أصبح من الواضح، منذ خريف ٢٠٠١، ملاحظة التضييق الأمني على المسلمين الممارسين لعباداتهم وعلى المنظمات الإسلامية في فرنسا. فمسؤولو هذه المنظمات والأئمة يتم استدعاؤهم بانتظام للاستجواب من قبل الاستخبارات العامة في المحافظات وإدارة الأمن الوطني (DST)[1].

وعوضاً عن الدفاع عن أبناء وطنهم من دافعي الضرائب «المسلمين» في وجه النزعة إلى جعل «الأمن هو كل شيء»، يقوم بعض ممثلي الشعب بتأجيج المشاعر حول المخاوف من الإسلام وذلك بجعلها رهاناً سياسياً رئيساً. بل إنه خلال العشر سنوات الأخيرة، يمكن ملاحظة تشكل نوع من أنواع المخاوف المحلية من الإسلام، «تظهر في بعض البلديات» في سياق سياسي تحت غطاء الدفاع عن قيم الجمهورية.

(razak Besseghir, Aziz Zemouri, Bagagiste à Roissy. Présumé terroriste)، ميشيل لافون (Michel Lafon)، باريس، ٢٠٠٣.

(١) بيوتر سمولار (Piotr SMOLAR)، إكزافييه تيرنيزيان (Xavier TERNISIEN)، «الاستخبارات العامة «تستدعي» المسؤولين المسلمين في سين سانت دوني» (Les Renseignements généraux «convoquent» les responsables musulmans de la Seine-Saint-Denis)، صحيفة (Le Monde)، ١٧ اكتوبر ٢٠٠٢؛ د.ل (D.L.)، «الأئمة يشجبون الأسلوب «الاستعماري»» (Les imams dénoncent un «processus colonial»)، صحيفة (Libération)، ٢٠-١٩ أكتوبر ٢٠٠٢؛ انظر أيضا شهادة ي.م. (Y.M) مع مؤلف هذا الكتاب، مرسيليا، خريف ٢٠٠٢.

المخاوف من الإسلام في فرنسا عند الخاصة:

مسؤولية ممثلي الشعب

إن جعـل الخـوف من الإسـلام أداة انتخابية ليس أمـراً جديدا في الحقل السياسي الفرنسي، خاصة على مستوى البلديات. فمنذ بداية الثمانينيات اعترض العديد من رؤساء البلديات من اليمين واليسار على إنشاء مساجد ظاهرة في المدن، مشاركين بذلك في تقسيم الإسلام إلى (إسلام «معتدل» وإسـلام «أصولي»[1]. وبالتأكيد تطور الوضع إلى الأحسـن: إذ إن الآثار المؤلمة التي عاشـتها مدينة شارفيو شافانو (Charvieu-Chavagneux)، حين قام رئيـس بلديتها جيرار ديزمـت (Gérard Desempte)، «خطأ» فـي عـام ١٩٨٩، بهدم إحدى دور العبادة للمسـلمين قـد تم تجاوزها[2]. ولكن، مع هذا التحسـن نحو انفتاح سياسي أكبر على الأقليات المسلمة المحلية، تبقى التصرفات الخاطئة المتعلقة بالمخاوف من الإسلام كثيرة لدى نوابنا. فإضافة إلى المعتادين على ذلك كاليساري جورج فريش (George Frèche) رئيـس بلدية مونبولييـه (Montpellier)، الذي يصف الأئمة بـ«الأميين» ويشـبه الفتيات المتحجبـات بمريضـات الأذن[3]، أو رئيس

(١) فنسـان جيسـير (Vincent GEISSER)، العرقيـة الجمهوريـة (Ethnicité républicaine)، منشورات معهد الدراسات السياسية (Sciences Po)، باريس، ١٩٩٧.

(٢) لم يعد يعرف أين يعيش رئيس بلدية شارفيو شافنو (Charvieu-Chavagneux).

(٣) مذكـور في جان مـاري غافالـدا (Jean-Marie GAVALDA)، «مونبلييه: نسـاء محجبات يربكن جـورج فريـش» (Montpellier: des femmes voilées perturbent Georges Frèche)، صحيفـة

بلدية نيس (Nice) جاك بيرات (Jacques Peyrat)، العضو الحالي في حزب التجمع من أجل حركة شعبية (UMP) والعضو السابق في الجبهة الوطنية (FN)، الذي كتب «إن المساجد بوصفها أماكن عبادة لا يمكن أن تجد لها مكاناً في جمهورية علمانية»[١]، فالتوجهات والممارسات التي تتسم بالتمييز شائعة في القرى الفرنسية. وبعد تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر رفض جان بيير إنجالبير (Jean-Pierre Enjalbert)، رئيس بلدية سان بري (Saint-Prix) في مقاطعة فال دواز (Val-d›Oise)، أن يعطي تعريفاً لمحل إقامة (attestation d›accueil)[٢] «لمواطني الدول المذكورة كثيرا في أحداث الإرهاب الدولي، أو الدول التي ظهرت فيها علامات تعبير عن السرور بالمأساة التي أصابت الغرب[٣]». وفي هوتمون (Hautmont) في الشمال تم الحكم، في ١٢ مارس ٢٠٠٣، على رئيس البلدية جويل ويلموت (Joël Wilmotte) بالسجن مدة ثمانية أشهر مع وقف التنفيذ بسبب التمييز العنصري والديني في حالات احتفالات الزواج، حيث أعطى تعليماته لإدارته البلدية بعدم إقامة احتفالات زواج

(Le Midi-Libre)، ١٨ مايو ٢٠٠٢. انظر أيضا المقابلة مع جورج فريش، «لو كنت وزيرا للداخلية...» (Si j›étais ministre de l›intérieur...)، صحيفة (Le Midi-Libre)، ١٣ ابريل ٢٠٠٢.

(١) تحرك يا (AFP)، ١٢ سبتمبر ٢٠٠٠. انظر كذلك افتتاحية موقع (oumma.co)، ١٣ سبتمبر ٢٠٠٠.

(٢) ما كان يعرف بـ (certificat d›hébergement). (المترجمان).

(٣) نقله ناصر نغروش (Nasser NEGROUCHE)، «عذر الإرهابي من أجل عنصرية مناهضة للمغاربة» (Alibi terroriste pour racisme antimaghrébin)، مقال سابق. هنا خطأ مطبعي حيث إن في عنوان المقال كلمة إرهابي (terroriste) وليس مناهض للإرهابي (antiterroriste). (المترجمان).

«المسـلمين» يوم السـبت بعد الظهر، كونه يوما مقدساً محجوزاً لزيجات «الفرنسيين الكاثوليكيين»[1].

ولكن هذه المخاوف من الإسـلام عند النواب يمكن أن تتم بصورة أخرى مبطنـة، كما حدث فـي «قضية فرانبـري إفـري» (Franprix d›Evry) في مقاطعة الإيسـون (Essonne). حيث اتخذ رئيس البلدية، اليسـاري مانويل فال (Manuel Valls)، في ديسمبر ٢٠٠٢ موقفاً ضد قرار محمد الجزيري، المالك الجديد لإحدى محلات التسوق الصغيرة (Franprix)، بعدم بيع لحم الخنزير أو الكحول في متجره. من الناحية القانونية لا يوجد مـا يمنع مـن القيام بهذا النوع من اختيار بيـع المنتجات، لكن هذا لم يمنع رئيس بلدية إفري من اسـتثمار هذه القضية لأسـباب سياسـية وإعلامية، مصرحا أنه «إذا كان حتى فرانبري أصبح يتخصص، فإن ذلك رسالة لكل مـن لا يـأكل الحلال بأنه من المستحسـن ترك الحي. وإذا لم نعمل شـيئاً، وقبلنـا بنوع آخـر إضافي من التخصص، فإن الحي سـيتحول إلى جيتو». بـل إن رئيـس البلدية هذا قد ذهب إلى أبعد من ذلك بتوجيهه رسـالة إلى لتاجر ذي الأصول المغاربية يوضح فيها بأنه يعطيه مهلة لتصحيح وضعه: « سوف أكون ممتنا لك إذا أرجعت كيفية عمل هذا المحل لما كانت عليه من قبل في أقرب وقت ممكن، خاصة أنه يسـتفيد من اسم فرانبري التجاري، والتي أخطرتها بالموضوع (...) وفي حالة عدم قيامك بذلك فإنني سوف

(١) تحرك AFP، ١٢ مارس ٢٠٠٣.

أستخدم، في الأيام القليلة القادمة، كل صلاحياتي الأمنية»[1].

هـذه التوتـرات المحلية تبدو إشـارة مهمـة لعلاقة ضبابية جـدا من قبل النواب والسـلطات العامة تجاه الواقع الإسلامي. إنهم وإن كانوا يرغبون عموما في بناء علاقات جديدة مع الناشـطين المسلمين (الأئمة، مسؤولي المنظمات الإسلامية، التجار. إلخ) إلا أن جاذبية استخدام الإسلام كسلعة سياسية تغيرهم كثيراً أيضا: أصبح التعامل الأمني مع «الملف الإسلامي» الضامـن «للحوكمة الجيدة» فـي البلديات. وقد يكون هـذا حقيقة أيضاً على المسـتوى الوطنـي، حيث تقوم بعض النخب السياسـية باسـتخدام قضية الحجاب الإسلامي وسيلة تستمد منها مشروعية وجودها.

(١) حول ملف فرابري حلال: نشرة البلدية، «رئيس بلدية افري (ايسون) يقف في وجه التخصيص الإسلامي لمحل مـواد غذائيـة فـي الحـي» (Le maire d›Evry ‹Essonne› s›élève contre la spécialisation musulmane d›un magasin généraliste de quartier)، www.maire-info.com، ٢٠٠٢؛ «يجـب بيع الخنزير» (Obligé de vendre du pporc)، نشـرة (Sophinet info)، www.saphirnet.info، ١٠ ديسمبر ٢٠٠٢.

العودة القوية للتزمت الجمهوري حول الحجاب

يبدو أن المواجهة في المدارس فيما يتعلق بالحجاب قد هدأت منذ القضية الأولى «للحجاب الإسلامي» بمدرسة كريل (Creil) عام ١٩٨٩، حيث وجد البعض في قرار مجلس الدولة في ٢٧ نوفمبر نوعاً من الحل المقبول، كونه «عملياً» (السماح بلبس الرموز الدينية في المدارس العامة مع منع التبشير (Prosélytisme)[١]، ووجد البعض الآخر في القرار، على العكس من ذلك، «خيانة جمهورية»، تشترك فيها وزارة التربية. في ذلك الوقت حاول بعض المثقفين الإعلاميين، مثل إليزابيت بادينتر (Elisabeth Badinter)، وريجي ديبري (Régis Debray)، وألن فينكيلكروت (Alin Finkielkraut)، وإليزابيت دو فونتاني (Elisabeth de Fontenay)، و كاثرين كينتزر (Catherine Kintzler)، لفت انتباه الحكومة اليسارية مستخدمين المخاوف من الإسلام ومرددين تصورات المستشرقين السلبية حول إخضاع المرأة المسلمة لأن «التسامح مع الحجاب الإسلامي [...] يعني فتح الباب أمام أولئك الذين اتخذوا قرار إخضاعها دون مناقشة وإلى الأبد [...]. إن السماح بلبس الحجاب الإسلامي، الذي يرمز لخضوع المرأة، يعني، في الواقع، إعطاء الآباء والإخوان

(١) نص قرار مجلس الدولة على أن : الحرية للطلاب تشمل الحق في التعبير وإظهار معتقداتهم الدينية داخل المدارس في إطار احترام التعددية وحرية الآخرين، ودون أن يكون لذلك تأثير على الأنشطة التعليمية ومحتويات البرامج الدراسية مع ضرورة التقيد بالحضور.

موافقتنا على النظام الأبوي الأكثر صرامة على وجه الأرض»[١].

وعلى الرغم من بعض الأصداء الإعلامية وبعض المشاعر التي أظهرها هذا الموقف، للمثقفين الوطنيين الجمهوريين، في أوساط المعلمين وبعض الدوائر العلمانية، إلا أن أثره لم يتجاوز تحركات محدودة للغاية، بعيدا عن «الحرب داخل المدارس» التي يبدو أن البعض كان يحاول إشعالها.

وبعد أربعة عشر عاما، التحق وزير الثقافة والتربية الوطنية السابق اليساري جاك لانغ (Jacques Lang)، عام ٢٠٠٣، بركب المثقفين الوطنيين الجمهوريين، على الرغم من أنه كان حينها من أشد المدافعين عن قرار مجلس الدولة فيما يتعلق «بالحجاب الإسلامي»، وأحد منظري «التعددية الثقافية في الحكومة». ويبرر هذا التحول إلى أن «تفكيره قد تطور خلال الشهور الماضية، حيث اتخذ التوجه الإسلاموي أشكالا متعددة ودعائية غير مقبولة أحيانا في بلدنا [...]. وعلينا - قطعاً - المحافظة على المدرسة حرما للعلمانية يجب أن يبقى محايدا بعيدا عن كل الصراعات الدينية».[٢]

ومن قبل هذا الوزير السابق ومن بعده اتخذ مبدأ المنع هذا كثير من الشخصيات السياسية والبرلمانية مثل لوران فابيوس (Laurent Fabius)، وإريك راول (Eric Raoult)، جان - بيير أبلان (Jean-Pierre Abelin)، وفرانسوا أوتان (François Autain)، إيف أوتيكسييه

(١) «أيها الأساتذة، علينا ألا نستسلم» نداء من خمسة مثقفين (Profs, ne capitulons pas!, appel de cinq intellectuels)، مجلة (Le Nouvel Observateur)، عدد ١٣٠٤، ٢-٨ نوفمبر ١٩٨٩.

(٢) تحرك AFP، ٢٧ يناير ٢٠٠٣.

(Yves Autexier) ، وموريس ليروي (Maurice Leroy) . . . والتي تطالب اليوم بمنع حمل الرموز الدينية في المدارس وأماكن العمل، كما يبين ذلك بوضوح تقرير باروان (rapport Baroin) الذي وقعه نائب رئيس الجمعية الوطنية : «فيما يتعلق بقضية الحجاب الإسلامي، فإن التأكيد على العلمانية يمكن أن يكون في منع لبس الحجاب في المدارس من جهة، وفي إعطاء مديري المدارس صلاحية مراعاة مصلحة التلميذة من جهة أخرى. وبهذا فإننا نغير الوضع الحالي الذي يجد الأساتذة أنفسهم فيه منتقدين دائما من قبل السلطات الإدارية».[1]

هذا الضغط من الأوساط «التحريمية» قاد رئيس الجمهورية إلى أن يتولى بنفسه هذا الملف المتنازع عليه، وذلك بتشكيله للجنة بتاريخ ٣ يوليو ٢٠٠٣ تكون مهمتها دراسة تطبيق مبدأ العلمانية، وهدفها (غير المعلن) هو إيجاد حل نهائي لهذه القضايا المتعلقة بالحجاب. ومن تحليل صياغة خطاب الرئيس، نستطيع بسهولة أن نعرف المهمة « الحقيقية» للجنة الجديدة: فقد ذكر أن «النقاش تركز بصورة خاصة على لبس الحجاب في المدرسة، وقد نشرت وسائل الإعلام الجدل الذي أثاره ذلك. هذا الجدل الذي يحيي خلافات الأمس حول مكان الدين في المجتمع، وفي ذات الوقت يطرح أسئلة رئيسة لعالم اليوم وللمستقبل: كالمساواة بين الأطفال من الجنسين في مسارهم الدراسي، وكذلك مسألة الدمج، مع

(١) أنظر، «المقترحات الستة عشر لتقرير باروان» (Les seize propositions du rapport Baroin)، مجلة (Le Figaro Magazine)، ٢٤ مايو ٢٠٠٣

الاعتراف بهوية السكان من أبناء المهاجرين من خلال المكانة المعترف بها للمعتقد الإسلامي» .[١]

ماذا حدث خلال السنوات الخمس الأخيرة لكي يشتعل النقاش من جديد في فرنسا كلها حول الحجاب والخطر الإسلامي؟ هل وصل عدد الفتيات اللاتي يلبسن الحجاب إلى هذا الحد (حد الأسلمة المقبول في مجتمعنا) ، لكي يشكل تهديدا كبيرا لاستقرار المؤسسة التعليمية ، ومن وراء ذلك النسيج الوطني؟

على العكس من ذلك تماما ، فالمؤشرات التجريبية (**empiriques**) تبدو أنها تؤكد أن هناك تراجعا جوهريا في عدد الفتيات اللاتي يلبسن الحجاب الإسلامي في المدارس الحكومية ، مع توجه عام إلى إنهاء الأزمة في كل مرة : «تشير حنيفة شريفي ، منسقة وزارة التربية الوطنية أنه في عام ١٩٩٤ ، وهي فترة الأزمة الثانية للحجاب (وزارة بيرو **Bayrou**) ، إلى أنه تم إحصاء (٣٠٠) واقعة تطلبت التدخل . وفي عام ٢٠٠٢ لم تتجاوز الحالات (١٥٠) واقعة. وفي معظم الأوقات يتم حلها ودياً . فالفتيات يفضلن عدم لبس الحجاب في الفصل على أن يتم حرمانهن من سنة دراسية يقضينها في صراع مع المدرسة» .[٢]

---

(١) جاك شيراك (Jacques CHIRAC) ، «خطاب بمناسبة تشكيل لجنة دراسة تطبيق مبدأ العلمانية» (Discours à l›occasion de l›installation de la Commission de réflexion sur l›application du principe de laïcité) ، الإليزيه ، ٣ يوليو ٢٠٠٣ . يمكن الحصول عليه من موقع : www.elysee.fr

(٢) مذكور في ، كارولين بريزارد (Caroline BRIZAED) ، «المدرسة : تشريع أم لا؟» (Ecole: légiférer ou pas) ، مجلة (Le Nouvel Observateur) ، عدد ٢٠١٠ ، ١٥ مايو ٢٠٠٣ .

من خلال هذه العودة القوية للجدل العام حول مسألة الحجاب الإسلامي، نفهم جيدا صعوبة العلاقة الحالية بين المواطنين الفرنسيين و موضوع «الإسلام». فإذا كان هذا الأمر يطرح في سياق من الأزمة المحلية والعالمية (ما بعد ١١ سبتمبر)، فإنه يتغذى أيضا بصورة واسعة من النظرة غير الواقعية لدين «الآخر» والذي تندرج على المدى البعيد في: أن الإسلام المستهدف في النقاشات والأحداث العامة (قوانين، قرارات، تعاميم، إلخ) إسلام مبني على خيال يتغذى من الخلفيات المتعددة لذاكراتنا الجماعية (mémoire collective)، وليس الإسلام المعيش يومياً.

على الرغم من أن الهدف الرئيس لهذا الكتاب ليس السرد التاريخي للمشاعر التي تحمل مخاوف من الإسلام في فرنسا، إلا أن التاريخ سيكون حاضرا دائما في تحليلنا. ودون الحاجة الماسة للرجوع إلى أيام الحروب الصليبية والجهاد[1]، والذي «يستدعيه» دائماً الخيال النزاعي لدى بعض الناشطين الحاليين، فإننا سنرى كيف ترتبط المخاوف من الإسلام بعلاقة انتقائية ومجافية- في ذات الوقت - لذاكرتنا الجماعية. فهذه المخاوف لا تختزل في تجدد مستمر لنزاع ديني[2] يقيم علاقة تضاد بين الغرب المسيحي والشرق العربي الإسلامي، وإنما هي في جانب كبير منها نتاج لعلمنة الفكر الغربي. بهذا فإنها تمثل تماماً عنصرية ضد المسلمين في صورة «حديثة»

(١) أيدجار فيبر (Edgar WEBER)، جورج رينو (George REYNAUD)، حروب الأمس الصليبية، جهاد اليوم (Croisades d›hier, Djihad d›aujourd›hui)، باريس، منشورات (Cerf)، ١٩٨٩.

(٢) صامويل هنتينجتون (Samuel HUNTINGTON)، صراع الحضارات (Le Choc des civilisations)، منشورات (Odile Jacob)، باريس، ١٩٩٧.

تتجسد في إطار أيديولوجية ما بعد ثورية (postrévolutionnaire) (الموقف المضاد لمحمد والعرب عند رينان[1] Renan) تتطور تدريجياً في اتجاه نزعة عالمية وتبشيرية غازية. ومن وجهة النظر هذه، فإن السياسة الإمبريالية لفرنسا، واستعمار الجزائر بصفة خاصة، قد مثلا «قمة» الممارسة المؤسساتية للمخاوف من الإسلام، كصيغة للسيطرة على السكان الأصليين المسلمين واستغلالهم[2]، تقابلها كتعويض، في حقيقة الأمر، بعض الإيماءات ذات الطابع الأبوي والتودد للمسلمين، كدعم السلطات الاستعمارية للطوائف الإسلامية.

إن هذا الكتاب يناقش أربعة محاور رئيسة. أن الرابط بين المخاوف الاستعمارية من الإسلام والمخاوف الجديدة يؤسسه اليوم بعض قادة الرأي وبعض المثقفين في وسائل الإعلام في صيغة متناقضة تماما: فبعض المدافعين القدامى عن الجزائر الفرنسية، وكثير من المهتمين بقضايا العالم الثالث ومناوئي الاستعمار أصبحوا محركين لتوجه مبطن خائف من الإسلام بزعم محاربة الظلامية والأصولية الإسلامية باسم قيم الحرية والعلمانية والديمقراطية، تلك القيم التي كانوا يتشبثون بها في شبابهم (الباب

(١) في محاضرته المشهورة «الإسلاموية والعلم» (L›islamisme et la science) في السربون بتاريخ ٢٩ مارس ١٨٨٣، يصرح رينان: «كل إنسان عنده بعض المعرفة العلمية بأشياء زماننا يرى بوضوح التخلف الحالي للبلاد الإسلامية، وانحطاط الحكومات التي يحكمها الإسلام، وعدم الكفاءة الثقافية للأعراق التي تجعل من هذا الدين فقط ثقافتها وتعليمها»، نص أعيد نشره تحت عنوان الإسلام والعلم (L›Islam et la science)، مونبلييه، منشورات (L›archange Minotaure)، ٢٠٠٣.

(٢) شارل- روبير أجيرون (Charles – Robert AGERON)، تاريخ الجزائر المعاصر، (Histoire de l›Algérie contemporaine) منشورات (PUF)، باريس، ١٩٧٩.

الأول) .

إلا أن هـذه الإنسـانوية الجديـدة (nouvel humanisme) ، تخفـي حقيقة ، وبصورة سيئة ، أيديولوجية انكفائية محركها الأساس هو الخوف من الإسـلام . لذا فإن خطاب المثقفين في وسـائل الإعلام يميل شيئا فشيئا نحـو الالتقاء مع خطاب الخبـراء الأمنيين الذين أصبح لهم صيت واسـع على المستوى الرسمي ، منذ الحادي عشر من سبتمبر (الباب الثاني) .

كما أن الأيديولوجية الأمنية اتسـعت كثيرا لتشـمل -أيضاً - أوساطاً شعبية « ذات توجهات خاصة » ترى في تنامي الجمعيات الإسلامية تهديدا لهوية « الضحية » التي تحملها . وعليه أخذ نوع من الصراع يظهر للاستئثار بوضعية « الضحية الشرعية » للعنصرية . وتوضح الاستخدامات التخويفية من بعض قادة اليهود في فرنسا هذا القلق (الباب الثالث) .

هـذه المخـاوف المبطنة من الإسـلام وصلـت أخيرا إلى بعض الأوسـاط الإسـلامية المسـماة « معتدلة » : فمنذ نهاية ١٩٨٠ ظهرت نخبة علمانية مـن المهاجريـن المغاربـة الذين يميلـون لاسـتخدام المخاوف من الإسـلام « ليكون لهم وضع » داخل الوسـط السياسي وداخل ممثليات الجيل الثاني من المهاجرين في فرنسا (الباب الرابع) .

الباب الأول

المخاوف من الإسلام في الأوساط الإعلامية:
الصحفيون والمثقفون المعنيون

«تتحدث الصحافة عما يتكلم عنه العامة. والعامة تتكلم عما تتحدث عنه الصحافة».

فلورنس أوبيناس (Florence AUBENAS)،
وميغول بن صايغ (Miguel BENASAYAG)
صناعة المعلومة (Fabrication de l›information)
منشورات (La Découverte)، باريس، ١٩٩٩

ما مسؤولية الإعلام في نشر المخاوف من الإسلام وجعلها من المسائل العادية في المجتمع الفرنسي؟

منذ التحول التاريخي الذي أحدثته الثورة الإيرانية في العام ١٩٧٩، وخاصة مع أول قضية تتعلق بالحجاب في فرنسا في العام ١٩٨٩، تبدو الأحكام المسبقة والصورة النمطية عن «الدين الثاني في فرنسا» مترابطة وثابتة بصورة مذهلة. وهذه الأوقات المهمة تميزت بإصدارين سيحفظهما تاريخ الإعلام، الأول هو: «ماريان المحجبة»[1] على صفحات مجلة (Figaro Magazine) في ٢٦ أكتوبر (٢) ١٩٨٥، والذي يوضح الترابط بين

(١) ماريان اسم يرمز للجمهورية الفرنسية ولرموزها. (المترجمان).

(٢) ملف العدد الذي أشرف عليه جان رسباي (Jean RASPAIL) ويحمل عنوان: «هل سنبقى فرنسيين

العنصريـة التقليدية ضد المهاجرين والمخاوف من الإسـلام. والثاني هو : «فتاة التشـادور»، على صفحات مجلة (Le Nouvel Observateur) في ٥ أكتوبر [١] ١٩٨٩ والذي يدل نوعا ما على انضمام اليسـار الإنسانوي إلى الرؤى التي تحمل الخوف من الإسلام[٢]. وعلى الرغم من تشكل وعي حديث، في بعـض الصحف، يتعلق بالخلط والانحرافات «المؤسـفة»[٣]، يبقـى تصوير الحالة الإسـلامية، إعلامياً، يطغى عليـه الإخراج في غيرية متشددة ومصادمة، مع اللجوء كثيراً إلى لغة التحذير، بل والتدمير. وكما يـرى برونو إتيان (Bruno Etienne) فإن: «الصـور النمطية الاختزالية والتمييزية الناتجة عن تاريخ منسي ومعفى من المحاسبة (حرب الجزائر)[٤] تقوم بالتأثير المباشـر على ما يحسه الناس من سخط ناتج عن الاختلافات التي تؤثر في تلقي الإسـلام كنموذج لا يتطور وذي طبيعة تصادمية»[٥].

بعد ٣٠ عاماً؟» (Serons-nous encore Français dans 30 ans?).

(١) وكان العنوان الرئيس للغلاف: «التطرف. التهديد الديني» (Fanatisme. La menace religieuse).

(٢) جوسـلين سـيزاري (Jocelyne CESARI)، هـل علينـا أن نخـاف مـن الإسـلام؟ (Faut-il avoir peur de l›islam?)، إصـدارات معهـد العلوم السياسـية (Sciences Po)، سلسـلة (bibliothèque du citoyen)، باريس، ١٩٩٧.

(٣) ارجـع إلـى جان كلـود ألانيـك (Jean-Claude ALLANIC) التقرير السـنوي الإعلامي (سـبتمبر ٢٠٠٠ - ديسـمبر ٢٠٠١). يمكن الحصول عليه من شـبكة الإنترنت على الموقع: www.france2.fr، الجزء الخاص بتفجيرات ١١ سـبتمبر ص. ٢٧. انظر ايضاً برنامج دانييل شـنايدرمان (Daniel Schneiderman) وقفة على صورة (Arrêt sur image)، «الإرهاب الإسلاموي: الدليل بالصورة؟» (Terrorisme islamiste: la preuve par l›image?)، قناة فرنسا ٥، ٩ فبراير ٢٠٠٣.

(٤) إضافة منا. (المؤلف).

(٥) برونو إتيـان (Bruno ETIENNE)، «صناعة النظرات» (La fabrique des regards)، صحيفة

ينتهي هذا المنطق الاختزالي إلى بناء قالب لنموذج «المسلم الذي يصنعه الإعلام» (Homo islamicus mediaticus) يتم تناوله بانتظام على ذات الهيئة: مصلون يتم تصويرهم من الخلف، عجزهم إلى الأعلى؛ حشود متراصة تصرخ و تهدد؛ نساء محجبات؛ شخص ذو لحية كرمز للتفقه، فاغر فاه وزائغ العينين[1]. من جهة أخرى، فإن استخدام الصفات «شاب مسلم» أو «شاب عربي مسلم»، لوصف فرنسيين يعتنقون الإسلام، تكثر في المجلات الأسبوعية العامة أو في التقارير التلفزيونية، خاصة على القناة الفرنسية الأولى (TF١)[2].

ولقد دارت الماكينة الإعلامية لصناعة «الصور النمطية السالبة الجاهزة عن الإسلام»، بكل طاقتها في صبيحة أحداث ١١ سبتمبر. وبما يتميزون به من تفوق في العمل الميداني فقد تنقل صحافيوها من محطة ألما (Alma-Gare) في روبي (Roubaix) إلى جادة بيلزونس (Cours Belsunce) في مرسيليا (Marseille)، مرورا بمنطقة مانغيت (Minguettes) في فينيسيو (Vénissieux) و الجوت دور (Goutte d›Or) في باريس (Paris)، وذلك لمعرفة ما يسمى «رد الفعل الإسلامي» على التفجيرات. وموضع التساؤل هنا ليس فقط الشيطنة (diabolisation) الإعلامية

(La pensée du Midi)، العدد ٩، شتاء ٢٠٠٢-٢٠٠٣، ص. ٩٦.

(١) أنظر تحليل برونو إتيان (Bruno ETIENNE) لأغلفة الصحف الصفراء الفرنسية خلال الاثني عشر عاما الأخيرة (١٩٩١-٢٠٠٣)، سابق. ص. ١٠٠.

(٢) بيير بيان (Pierre PÉAN)، كريستوف نيك (Christophe NICK)، تي إف ١. سلطة (TF1. Un pouvoir)، منشورات (Fayard)، باريس، ١٩٩٧.

للمســلمين- فالصحفيــون لم يكونوا يبحثون، بفكر مســبق، عن إعطاء صورة ســلبية عن الإســلام- وإنما هــو النزعة لخلق تجانس بــين التوجهات والسلوك وإعطاؤها صفة جوهرانية (essentialiste) وفئوية، كما لو أنه ينبغي أن يكون لمســلمي فرنسا بالضرورة رأي في ابن لادن وفي الأحداث الجارية[1].

(١) ف. جيسير (V. GEISSER)، «المفتي، والباحث، والصحفي. فيما يتعلق بما يسمى «رد الفعل الإسلامي» علـى أحـداث ١١ سـبتمبر» (Le mufti, le chercheur et le journaliste. A propos de la supposée «réaction musulmane» aux événements du 11 septembre)، صحيفـة (La Médine)، ديســمبر ٢٠٠١.

التوجيه الإعلامي للحس المشترك تجاه الإسلام

في هذا السياق المشحون بالانفعالات، ليس من السهل دائما محاولة القيام بعملية تقييم «موضوعي» لدور وسائل الإعلام في زيادة وترسيخ المخاوف من الإسلام. ومع ذلك فإنجاز المهمة ليس ميؤوسا منه تماما، حيث إن الباحث يتمتع بعامل «الزمن» الذي يتيح له إقامة فاصل تاريخي فيما يتعلق «بالانفعالات المؤثرة»، كما يتمتع، بصورة خاصة، بإعمال قدراته في مقارنة الوثائق المتنوعة. هذه الآلية تقود بالتأكيد إلى التساؤل حول السمة الموحدة الخاصة بالخطاب الإعلامي مقارنة بغيره من وسائل نشر التصورات الاجتماعية الأخرى: لا يمكن تشبيه وسائل الإعلام اختزالاً بنوع من «المخلص الهابط من السماء» الذي يحتكر صناعة الصور السالبة والأحكام النمطية عن الإسلام والمسلمين. وكما يشير فرانك فريجوسي (Franck Frégosi) وجان روبير هنري (Jean-Robert Henry) فإنه: من المهم هنا أيضا ألا نركن إلى الأفكار التي تبسيط الأمور جدا. فالخطاب الإعلامي ليس موحداً، خاصة أنه ليس الوحيد في الساحة. فهو يمثل عنصراً واحداً من مجموعة العناصر التي تشكل الخطاب حول الإسلام، ويحاول أن يطغى على بقية هذه العناصر من خلال كثافته وبلاغته، ولكن دون القضاء تماماً على الوسائل الأخرى في تقديم الإسلام. في الواقع، إننا نجد أنفسنا داخل لعبة مكونة من ثلاثة أو أربعة خطابات تتنافس جزئياً وتندرج تحت السيطرة النسبية للخطاب الإعلامي[1] ».

نفهم إذن أن وسائل الإعلام لا تخلق المخاوف من الإسلام ولكنها تقوم بعملية

---

(١) ج.ر. هنري (J-R. HENRY)، ف. فريجوسي (F. FREGOSI)، «وسائل الإعلام الشيطانية» (Les médias sataniques)، مجلة (Le Nouvel Observateur)، سلسلة (Portrait)، «قادة الإسلام» (Les maîtres de l'islam)، ١٩٩٠، ص. ٨٦-٨٧.

توجيه للحس الشعبي تجاه الإسلام والإسلاموية: توجيه يتم من خلال اختيار محتوى المقالات والتقارير، والموضوعات، والصور التي تعرض للقراء والمشاهدين. كما يتم من خلال اختيار شتى شخصيات لها المشروعية والقدرة على الحديث عن الإسلام والإسلاموية (مؤلفون، وكتاب مقال، وفلاسفة، ومتخصصون في السياسة، وفي حالات نادرة متخصصون في الشأن الإسلامي[1]؛ وأخيرا التوجيه من خلال التركيز على شخصيات إسلامية محلية أو عالمية يتم تقديمها أحيانا أبطالاً إيجابيين وأحيانا أبطالاً سلبيين مجرمين.

في هذا المعنى فإن المخاوف من الإسلام في وسائل الإعلام لا تختلف نهائيا عن المنطق الذي تقوم عليه لغة المخاوف من الإسلام في المجتمع الفرنسي[2]؛ فوسائل الإعلام لا تخلق المخاوف من الإسلام بقدر ما تسهم في جعلها أمراً عاديا تحت غطاء البحث الجاد (الاستطلاعات) أو أحاديث مسؤولة (استدعاء لمثقفين مدافعين عن قيم الجمهورية). هذا «الحس الإعلامي المشترك» يكتسب اليوم قدرا كبيرا من الفاعلية بارتكازه على نوع من «التبحر في العلوم الدنيوية». في واقع الأمر، فإن هناك ازديادا في عدد الصحفيين الذين قرؤوا عن الإسلام والإسلاموية، وذهبوا في رحلات استطلاعية في البلدان العربية والإسلامية أو في التجمعات الإسلامية المحلية، بل وبعضهم تعلم بعض الكلمات العربية: فهم يريدون بالتأكيد أن يعرف هذا عنهم.

(١) بعض المتخصصين القديرين في الإسلام كعلي مراد أو محمد أركون لا يظهرون إلا نادرا في وسائل الإعلام.

(٢) وهذه أيضا الفرضية التي يدافع عنها ألن قريش (Alain GRESH)، «تناول الإسلام في وسائل الإعلام» (Le traitement de l›islame par les médias)، لقاء لموقع www.saphirnet.info، ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٠؛ ولذات المؤلف: «الإسلام في مرآة وسائل الإعلام» (L›islam au miroir des médias)، صحيفة (Le Monde diplomatique)، يونيه ١٩٩٧.

من تهيؤات المسلم النقابي العمالي في الثمانينيات إلى الإسلاميين ذوي الياقات البيضاء في الألفية الثالثة

إن التشكيك في عمل الصحفيين حول الملف «الإسلامي» لا يمكن عزله بصورة مسبقة عن الملاحظات المتكررة التي توجه عادة لمنطق صناعة الخطاب الإعلامي[١] : عدم التخصص في الموضوع، وعدم الانتظام في متابعة الملفات، والرقابة الذاتية، وغير ذلك : «إن الصحفيين الذين اجتهدوا في استثمار موضوع «الإسلام» والقيام بعمليات الاستطلاع والتقصي، منذ عدة سنوات، يعدون على أصابع اليد الواحدة في الصحافة الفرنسية»[١]. ومن هنا يتضح أن التشكيك لا يتعلق بمخاوفهم المفترضة من الإسلام بقدر ما يتعلق «بالغياب التام لحيادهم في النقد» بالنسبة للأحاسيس والانفعالات الشعبية : «عندما يرغب صحفي في أن يوفر على نفسه الجهد اللازم لتشكيل الحس المشترك، فإنه ينتهي إلى الإصرار على إيجاد نماذج- في الجميع- يسقطها على موضوعه، وإلى تمرير تصوره المسبق عن الأشياء مقدماً إياه على واقع الحال»[٢]. على هذا الصعيد، فإن الغاية المسكوت عنها، للخطاب الإعلامي المتعلق بالإسلام

---

(١) لقاء للمؤلف مع صحفي مسؤول عن صفحة «الأديان» في إحدى الصحف اليومية الكبيرة.

(٢) ف. أوبناس (F. AUBENAS)، م. بنالصايغ (M. BENASAYAG)، صناعة المعلومة. الصحفيين وأيديولوجيا التواصل (La fabrication de l›information. Les journalistes et l›idéologie de la communication)، مرجع سابق. ١٩٩٩، ص. ٦٦.

لم تتطور أبدا منذ عشــرين عاما، وهذا يتوافق بصورة عامة مع قيام الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، كما بين ذلك عالم الاجتماع صادق رباح في دراسته المعمقة عن كيفية تصوير الإسلام في الصحف الأسبوعية العامة[١]. ومثل حالة تنفيس التوتر بالمواجهة (catharsis)، يصبح الأمر عبارة عن «الرد على الخوف بالخوف»، وذلك بتحويله إلى خطاب هدفه الأساسي ليس التوجه للقارئ العادي - المقتنع مسبقا بقرب «الخطر الإسلامي» - وإنما هدفه التوجه لقادة الرأي، وخاصة التوجه إلى السلطات الرسمية المتهمة بالتعاطف وبالعجز.

فمنذ الصدمة النفسية الإيرانية، التي جددتها في صورة نموذج خيالي في التسعينيات «المشكلة الجزائرية»، وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، جددها التهديد المستمر «بالإرهاب الإسلامي العالمي»، يكاد لا يتم تناول ملف «الإسلام» في وسائل الإعلام إلا مشوهاً من خلال ظهور الإسلاموية ونتائجها التدميرية. هكذا فالإسلاموية لها وظيفة التمثيل النشط[٢] للإسلام، مع إقصاء أغلب الخطابات والصور الإعلامية عن وضع الإسلام في فرنسا والعالم. ولم يعد الإسلام في كثير من

(١) ص. رباح (S. RABAH)، الإسلام في الخطاب الإعلامي. كيف تتصور وسائل الإعلام الإسلام في فرنسا؟ (L›Islam dans le discours médiatique. Comment les médias se représentent l›islam en France?) دار البراق، بيروت، ١٩٩٨.

(٢) ف. فريجوسي (F. FREGOSI)، الأصولية في مجلتي (Le Nouvel Observateur - Le Figaro Magazine)، دراسة لتصور اجتماعي عن الإسلام، (L›intégrisme dans le Figaro Magazine et Le Nouvel Observateur. Etude d›une représentation sociale de l›islam) رسالة تحت إشراف ب. إتيان (B. ETIENNE)، (IEP) أكس ان بروفنس، ١٩٨٧.

الأحيان ينظر إليه كمسألة اجتماعية عادية وإنما دائماً «كخطر محتمل»، كما نجده في النقد العنيف عند كلود إمبير (Claude IMBERT) في افتتاحيات مجلة (Le point):

«إن (الملاحظة) الأولى هي أن الإسلاموية داء كامن في الإسلام ولا يعيش إلا في داخله. إن القول بعدم وجود علاقة بين الاثنين ضرب من العبث: فالإسلام «السيئ» ليس إلا نسخة مقاتلة من قانون قرآني لم تقم أي قوة إسلامية معتبرة بالتحذير منه. ويكفي الاستماع هذه الأيام إلى عبد الصمد موسوي لمعرفة كيفية انتقال أخيه زكريا- عندنا- من إسلام معتدل إلى تنظيم القاعدة. الملاحظة الثانية هي أنه لم يحدث إلى الآن أي إصلاح مؤثر لتطهير هذه العقيدة السماوية التي نزلت في القرن السابع على جزيرة عرب محمد، ورمالها وجمالها وسيوفها المخضبة بالدماء...»[1].

من هنا يمكن فهم الاتجاه المنظم لخلط الأمور لدى كتاب الافتتاحيات والصحفيين: إنه لا يأتي في المقام الأول من إرادة واضحة لشيطنة الإسلام والمسلمين، وإنما يأتي بصورة أكبر من عدم القدرة على الانعتاق من العقدة المرتبطة بهاجس الإسلاموية، كما لو أن هذه الإسلاموية أصبحت تحدد كل مظاهر الحياة اليومية للمؤمنين والتابعين لهذا الدين. وخلاصة القول، أن الصحفيين ينطلقون من الإسلاموية للوصول بعد ذلك إلى الإسلام، وعلى الرغم من النية الصادقة عند بعضهم في لفت الانتباه إلى «الإسلام

(١) كلود إمبير (Claude IMBERT)، مجلة (Le Point)، رقم ١٥٦٧، ٢٧ سبتمبر ٢٠٠٢.

الهادئ»[١]، وإلى الممارسة العادية للعبادات الإسلامية، إلا أنهم تقريباً ينتهون دائما بطرح السؤال حول صمود هذا «الإسلام المعتدل» مقارنة بالتهديد الكبير، أي «الإرهاب الإسلاموي». وفي نهاية الأمر، وعلى الرغم من الحذر من الوقوع في ذلك، فإن الإسلامويين في طريقهم لأن يصبحوا «المعيار» للتصور الإعلامي، في حين أصبحت كينونة المسلم العادي فصيلة في طريقها إلى الانقراض. وعلى هذا الصعيد، فإن وسائل الإعلام تستجيب لرغبة اجتماعية مسكوت عنها: وهي ليست رغبة معرفة الإسلام والممارسات الاجتماعية للمسلمين[٢]، وإنما رغبة في معرفة رأي الخبراء حول مخاطر عدوى وتمدد الإرهاب الإسلاموي داخل جسد الوطن.

يرجع تحليل التصورات الإعلامية عن الإسلام- لحد ما- إلى دراسة تطور التهيؤات الأمنية في المجتمع الفرنسي[٣]. إن الأمور تجري كما لو أن التصوير الخيالي للإسلام في وسائل الإعلام، مهما ابتعد عن العقلانية، فقد سجل موقفاً مشروعاً بشأن بعض التطورات الاجتماعية الخاصة بالشعوب المنحدرة من الهجرة العربية الإسلامية. وتنتج الفاعلية الرمزية

(١) إكزافييه تيرنيزيان (Xavier TERNISIEN)، «يوم هادئ في مسجد بوردو» (Jours tranquilles à la mosquée de Bordeaux)، صحيفة (Le Monde)، ٤ ديسمبر ٢٠٠٢.

(٢) برونو إتيان (Bruno ETIENNE)، «صناعة النظرات» (La fabrique des regards)، سابق، ص. ٩٠-١٠٢.

(٣) لوران موشيللي (Laurent MUCCIELLI)، العنف وعدم الأمن. الأوهام والواقع في النقاش الفرنسي (Violences et insécurité. Fantasmes et réalités dans le débat français). دار نشر (La Découverte)، باريس، ٢٠٠١.

للخطاب الإعلامي بالتحديد من تلك القدرة الهائلة على التأقلم مع الواقع الاجتماعي، في ذات الوقت الذي يتم فيه تشويه هذا الواقع وتقديمه حقيقة معيشة: كحقيقة أن التهديد في بداية الثمانينيات كان يأتي من العمال المسلمين، أولئك العمال المتخصصين (OS)[1] المغاربة في مصانع رينو أو بيجو-تالبوت، والذين كانوا يقومون بالدعاية لصالح الخميني تحت غطاء النشاط النقابي؛ وكحقيقة أن التهديد في خلال التسعينيات لم يعد يأتي من العمالة المغاربية ولكن من الشباب الجانحين في الضواحي الذين تمت أسلمتهم عن طريق الحركات الأصولية المرتبطة بالجماعة الإسلامية الجزائرية (GIA)؛ وأخيراً، كحقيقة أن الخطر اليوم هو- قبل كل شيء- تهديد داخلي مصدره أبناء العرب الفرنسيين والمتخرجين مباشرة من الجامعات الغربية. ومنذ بضع سنين، تحول موضع التشدد إلى «مسألة فرنسية» («الأصوليون» أصبح لديهم أوراق ثبوتية فرنسية) وإلى مشكلة ثقافية (لم يعد الأمر يتعلق بالفاشلين في النظام التعليمي وإنما بأصحاب شهادات ذوي تعليم عال جدا). وخلاصة الموضوع، أن وسائل الإعلام تنقل وتؤكد بصورة واسعة التصورات الأمنية الجديدة عن «التهديد الإسلامي»، وهو أن أشبال الإرهاب الإسلامي لم يعودوا شباباً قد فشل في الاندماج الاجتماعي وإنما صاروا أصوليين مندمجين:

«إن شبكة من المؤمنين المتشددين جداً تتوزع بين ليل، وستراسبورغ،

---

(١) يرمز حرفي (OS) إلى عبارة «عمال متخصصين»، وهم اليد العاملة التي ظهرت الحاجة لها بعد ١٩٤٥، وكان يتم تأهيلها سريعا في دورات متكررة. (المترجمان).

وليون، ومارسيليا، ومونبولييه، وتولوز، وبوردو. وكلهم جامعيون وشباب وأذكياء وساخطون على قيم المجتمع، وذوو مواقع هامة في تجمع المنظمات الإسلامية، وفي الغالب مواقع في جمعية الطلاب المسلمين بفرنسا»(1).

وفي إطار مماثل (هاجس السمة «الداخلية» للخطر الإسلامي)، لم تعد وسائل الإعلام تعنى «بالأصوليين الأجانب» وإنما بهؤلاء الشبان الفرنسيين الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام وتتلاعب بهم الشبكات الإرهابية الإسلامية:

«أسماؤهم كامل، وجيروم، وفريد، وهيرفي جمال... المئات من الشبان الفرنسيين ذهبوا سراً إلى أفغانستان بين ١٩٨٩ و ٢٠٠١. سواء أكانوا من أصول إسلامية أو أنهم اعتنقوا الإسلام حديثا، فلقد تبنوا أكثر أفكار الإسلام تشددا، وتلقوا- في مخيمات كابل وجلال أباد- إعداداً وتعليما عسكريا عالياً، ومثله شحنة بأنهم محاربو القرآن»(2).

(١) جان ماري أمات (Jean-Marie AMAT)، إيف بنوا (Yves BENOIT)، «الإسلامويين الجدد. إستراتيجية من أجل الولوج إلى الجمهورية» (Néo-islamistes. Stratégie pour noyauter la République)، مجلة (L›Express)، ١٧ أبريل ٢٠٠٣.

(٢) «الأفغان الفرنسيين» (Les «Afghans» français)، مجلة (L›Express)، ٢٨ فبراير ٢٠٠٢.

العبودية الطوعية للفتيات المحجبات:
إنهن في ضلال ولكنهن ذكيات

يمكن أن نلاحظ تطوراً مماثلاً فيما يتعلق بالتصور الإعلامي للحجاب الإسلامي. بالتأكيد، يتعرض الحجاب بصورة عامة لهجوم قاس من أغلب وسائل الإعلام الفرنسية، مهما كان توجهها الفكري، وخاصة المجلات الأسبوعية العامة مثل (Le Point)، و(L›Express)، و (Le Nouvel Observateur)، و(Marianne) (...) المستمرة في وضع صور فتيات محجبات على صفحاتها الأولى، صور يحمل نصفها البراءة والنصف الآخر التهديد بالخطر. فالحجاب الإسلامي يظل دائماً، في تصور وسائل الإعلام، رمزا لخضوع المرأة ولهضم الحريات الفردية. وهذا ما يجعل صحفيين مثل جان دانييل (Jean Daniel) مستمرين إلى اليوم في المطالبة بمنعه في المدرسة وأماكن العمل في القطاع العام:

«هل مسألة الحجاب هذه مصطنعة؟ لا تنخدعوا! إنها مثقلة بالرمزية. العديد من المسلمين الفرنسيين الذين لم يكونوا يتحدثون بالأمس، يقولون اليوم: إنه اختبار للجمهورية. فإما أن تقاوم أو تستسلم. عندها سيكون عليها التنازل عن أشياء أخرى. باختصار، إني أقف تماماً مع منع ارتداء الحجاب في المدرسة وأماكن العمل في القطاع العام»[1].

(١) جان دانييل، «طبعا، لا للحجاب!» (Décidément, non au voile!)، مجلة (Le Nouvel Ob- servateur)، ١٥-٢١ مايو ٢٠٠٣.

ولكــن، وبشــكل واضح، فإن خلف هــذا الثبات الظاهــر لهذا التصور ذي الشــقين، يلاحــظ بعــض التطور: فالخطــاب الإعلامي قد اشــتمل في الغالــب علــى قدر مــن «الواقعية الاجتماعيــة». فالفتيــات اللاتي يضعن الحجــاب لم يعــدن يقدمن بصــورة مســتمرة كضحايا لاســتبداد الأب و (أو) الإخــوة (مجلــة Le Nouvel Observateur, ١٩٨٩). وأصبحت فرضيــة «العبوديــة الطوعيــة» لهــا الغلبة فــي التحليــلات الإعلامية: إن الأجيال الجديدة من مســلمات فرنســا قد اختارت طواعية لبس الحجاب، وهذا ما يجعلهن أكثر خطورة. إن فعلهن هذا لم يعد نتيجة إكراه أســري ولكن إشــارة إلى التزام شــخصي، «متطرف» إذن. وتســير الأمور كما لو أن وســائل الإعلام قد اســتوعبت تماما بعــض المقدمات المهمــة للخطاب الاجتماعــي (أعمــال فرنســواز قاســبار Françoise Gaspard، فــاراد خوســروخافار Farad Khosrokhavar، واديــن ويبل Nadine Weibel، أو الأعمال الحديثة لدونيا بوزار [1] Dounia Bouzar)، ولكن عوضاً عن اســتخدامها في ســبيل مناقشــة تصوراتهم الاجتماعية عن لبس الحجاب الإســلامي، تتم مواءمتها مع أفكارهم من أجل تدعيــم الأبعاد التخويفية والتدميريــة: فالفتيات المحجبــات اليوم أكثر تهديداً للمدرســة العلمانية

(١) فرنســواز قاســبار (Françoise GASPARD)، فرهــاد خوزرزخافــار (Farhad KHOSROKHAVAR)، الحجاب والجمهورية (Le Foulard et la République)، دار نشــر (La Découverte)، باريس، ١٩٩٥؛ نادين ويبل (Nadine WEIBL)، خلف الحجاب، المرأة المسلمة في أوروبا، (Par-delà le voile, femme d›islam en Europe) دار نشــر (Complexe)، بروكسل، ٢٠٠٠؛ دونيا بوزار (Dounia BOUZAR)، سعيدة كادا (Saïda KADDA)، إحداهن متحجبة والأخرى لا (L›Une voilée, l›autre pas)، دار نشر (Albin Michel)، باريس، ٢٠٠٣.

ولقيم الجمهورية من الفتيات المحجبات في السابق، واللاتي كان يلتمس لهن، على الأقل، العذر في الضغوط الأسرية:

«هؤلاء الصغيرات في ضواحي ستيفان (stéphanoise)، المغرر بهن، فهن المناطق المنكوبة التي يستغلها- كما يقال- الأصوليون؟ هن في كل الأحوال يتعرضن لتعاليم دينية في بيئة إسلامية نشطة. خلال حوارهن، يفهم أنهن يستفدن من دعم دراسي بفضل جمعية قريبة من اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا. وإن إحداهن تذهب كل عام إلى نيفر (Nièvre) لحضور دورات في التربية الدينية يدعمها أئمة من المملكة العربية السعودية، وأخرى تخصص كل أيام الأحد لعلوم الدين: دروس في الترتيل في الصباح، ودراسة النصوص بعد الظهر. إنهن يترددن على المكتبات الإسلامية، وعلى جمعية ليون الجديدة للنساء الفرنسيات والمسلمات المحررات. كما يتحدثن بهدوء عن مناصري جماعة التبليغ، وهي حركة دعوية تهدف إلى نشر التدين] [...»[1].

وعلى العكس من الفكرة السائدة لدى بعض الجامعيين، فإن الصحفيين ليسوا مجموعة من «الأغبياء الموفقين»، وإنما هم أشخاص قاموا بصورة عامة بقراءة الكثير من المراجع في المسائل المرتبطة بالإسلام، والإسلاموية، والعالم العربي الإسلامي. وإنهم بالتالي يعرضون بصورة طابعها التضخيم، مجموعة من المصطلحات العربية والقرآنية: كالحجاب،

---

(١) «استبيان عن الحجاب» (Enquête sur le voile)، مجلة (Le Nouvel Observateur)، عدد ٢٠١٠، ١٥ مايو ٢٠٠٣.

والجهـاد، والفتـوى، والاجتهاد، والعلمـاء... إلخ. بـل إن بعضا منهم يذهـب إلى حد نشـر معاجم صغيرة الحجم لمصطلحات إسـلامية، وذلك لتوضيـح الصورة لقرائهـم حول هذا الدين الغامـض. هنا يتزين الخطاب الإعلامي بمظاهر التعمق المعرفي الإسـلامي مستنداً على المراجع المتوافرة «لمتخصصين معروفين مثل (جيل كيبل Gilles Kepel، أوليفييه روا Olivier Roy، برونـو إتيـان ... إلخ). ولكن هذا ليـس عمقاً وإنما مظهر وهمي للجدية العلمية، فهذا الخطاب المتبحر في العلم هو في حقيقته أداة تخدم فرضيـة وحيدة تقريباً، وهي «التهديد الدائـم»: «إن التصنيفات الذهنية التي يتم داخلها تصور الإسلام المنقول للغرب في الخطاب الإعلامي غالبا ما تكون مغلوطة تاريخياً. فهي تعكس في أحايين كثيرة نوعا من الترقيع «العالم» (savant)، والتوفيقية النفعية التي تحولت لأداة من أجل إحلال الخيـال محل الواقع»[1]. ومنذ العام ١٩٨٩ - السـنة الأولى لأول قضية في الحجاب-، أصبح الترقيع داخل وسائل الإعلام، دون أدنى شك، أكثر إتقانـاً، ولكنه مع ذلك لم يطرح نماذج الحس المشـترك التي يرتكز عليها للمناقشـة. وعلى سـبيل المثال، فإن مارتين غزلان (Martine Gozlan) المسـؤولة عن ملف الإسلام في تحرير مجلة (Marianne)، تزعم الرجوع إلـى المعارف الاستشـراقية من أجـل وضع تصور في الخيال الحسـي حول الكبت الجنسي «للرجال» العرب المسلمين:

(١) س. رباح (S. RABAH)، الإسلام في الخطاب الإعلامي، (L›Islam dans le discours média- tique) مرجع سابق، ص. ٣٣١-٣٣٢.

«مـن خلال ارتكازها على المؤسسـة السـامية الموروثة مـن الأجداد عن العيش في السـراي، فإن الحضـارة العربية الإسـلامية تدعم وتمجد تعدد العلاقـات الجنسـية. وبالتالي فهي تواجه رغبة هائلـة تأخذ بلب الرجل، وفـي ذات الوقـت تخاطر بالسـيطرة عليه. إنه مبدأ اللـذة : الجنس دون حدود. ومبدأ الذعر: تخصيص قوانين وخلق أجهزة شرطة من أجل كبت الوجود الكلي للجسد»[١].

ولكن ميل وسـائل الإعلام هذا نحو إعادة إنتـاج ودعم خطابات الحس المشـترك عن الإسـلام والمسـلمين لا يمكن- مع هذا- أن يعطي مشروعية لفرضية «الفكر الأوحد» التي يعد الصحفيين رموز الترويج لها.

(١) م. غزلان (M. GOZLAN)، «الإسـلام والجنس» (L'islam et le sexe)، مجلة (Marianne)، ٢٩ أكتوبر إلى ٤ نوفمبر ٢٠٠١.

معارك إعلامية من أجل القضية العادلة

بعيدا عن التأكيدات التي يطلقها المحررون الصحفيون والمثقفون الإعلاميون، فإن تحليل المحتوى للمقالات والبرامج الإعلامية يترك عدة تساؤلات معلقة، وهذا ما أدى إلى انطباع «بالتشكك الإعلامي» تتشارك فيه هيئات التحرير بقدر لا بأس فيه[١]. مع ذلك، فهذا التشكك بدأ يأخذ منحى معتدلا عن طريق نوع من التماسك في الرسالة[٢] التي ترغب وسائل الإعلام في إيصالها لمتلقيها. وعلى العكس تماما مما يؤكده سيرج هاليمي (Serge Halimi) في كتاب «كلاب الحراسة الجدد» (Les Nouveaux Chiens de garde)، فإن الإصدارات الأسبوعية غير المتخصصة هي أقل دعماً «للفكر الأوحد»[٣] من موجهي الصراعات السياسية والاجتماعية، والذين يلتقون غالبا حول ملف الإسلام. وعلى

---

(١) انظر أزمة مجلة (L'Express) فيما يختص بالتعليق المادح الذي كتبه ألفرد جروسيه (Alfred Grosser) لكتاب باسكال بونيفاس (Pascal BONIFACE)، هل من المسموح نقد إسرائيل؟ (Est-il permis de critiquer Israël ?). وهذا كتاب يقدم توثيقا يعكس تطور الوعي السياسي الفرنسي تجاه إسرائيل ويحلل مفهوم العداء للسامية كإحدى آليات الضغط في أوروبا. تمت ترجمة الكتاب إلى العربية تحت عنوان: من يجرؤ على نقد إسرائيل؟، ترجمة وتقديم أحمد الشيخ، القاهرة- بيروت، المركز العربي للدراسات الغربية، الفارابي، ٢٠٠٤. (المترجمان).

(٢) يدرج المؤلف في هذه الصفحة وتحت عنوان منطق الخوف مقالا من مجلة (Le Point) لكلود أمبير (Claude Imbert) وهو بعنوان «الإرهاب الدولي (Cosmoterrorisme)». ومن أجل التوضيح تم إدراجه في ملحق نهائي وقد سبقت الإشارة لذلك في مقدمة المترجمين. (المترجمان).

(٣) س. حليمي (S. HALIMI)، كلاب الحراسة الجدد (Les Nouveaux Chiens de garde)، منشورات (Libre-Raisons d'Agir)، باريس، ١٩٩٧، ص. ٢٧.

الرغم من ذلك، فإن الانقسامات الأيديولوجية تظل قائمة، وهو ما لا يظهر مباشـرة على شكل معارضات راديكالية حول التصورات المتعلقة بالحدث الإسـلامي، وإنما يظهر كثيراً في شـكل توزيع للأدوار في الدفاع عن قيم الترابـط. وهذا يعني أن وسـائل الإعلام تنطلق مـن وجهات نظر خاصة عند تقديم رسالتها حول الإسلام في فرنسا. وأن هدفها ليس «إصلاح حال المسـلمين» وإنما تلبية توقعات قرائهـا الفعليين أو المحتملين. وكحال رجل السياسـة المنخرط في حملة انتخابية، تسعى وسائل الإعلام بانتظام لخلق توافق بين رسـالة عامة عن فرنسـا، وعن الأمة، وعن العولمة، ...إلخ وبين رسائل محددة الهدف بصورة أكبر وموجهة إلى من يفترض أنهم «النواة» لقرائهـا. وفي هـذا الإطار نفهم بصـورة أفضل وظيفتهـا كصنو للرأي: قلـق أمنـي، وخوف من الغـزو، تهيؤات عـن الضعف الثقافـي، والدفاع عـن العلمانيـة الجمهورية، والتعاطف الإعلامي مـع مثقفي العالم الثالث المهدديـن مـن قبل «الأصوليـين». فـي كل «ميادين المعارك» هـذه، تتوزع وسـائل الإعلام الأسـبوعية الأدوار سـالكة طريق ما «تتخيله من تطابق» مع آراء قرائها.

وهكذا، نجد مجلات أسـبوعية محسوبة سياسـيا وإعلاميا على اليمين مثـل (L›Express) و(Le Point)، تميل إلى اتخاذ موقف أمني متشـدد فيما يتعلق بقضايا الإسـلام، وتفضل تناول الملفات المثيرة وتلجأ متعمدة إلـى طريق خلـط الإسـلام بالأصولية والإرهـاب. والنبـرة الأيديولوجية لرسائلها عن الإسلام لا تصدر من محتوى المقالات والملفات (التي لا تخلو نسبيا من الغموض)، بقدر ما تأتي عن طريق المقالات الافتتاحية والمونتاج

التصويري الذي يلعب بأكبر قدر على الخوف، مشدداً على تبني فكرة أنه يجب احتواء حركة مسلمي فرنسا ووضعهم تحت السيطرة:

«هل هناك محنة بعينها يجب الخوف منها ؟ بصراحة، نعم! إنه الإسلام ومرضه الداخلي: الإسلاموية. فالإسلام يعزل ويقيم مجموعات فئوية، ويدعو لنظام اجتماعي مخالف لقيمنا وقوانيننا. ونستطيع أن نعزي أنفسنا بالحلم بإسلام فرنسي متوافق مع مبدئنا العلماني. إن شاء الله! تعزية للنفس، خاصة عندما نرى أن الشباب المتحدرين من أصول مغاربية قد بدأت تقل ممارستهم لدين آبائهم... ولكن، يا للأسف، سمحت المجاورة (confinement) للأصولية أن تؤثر- بصورة علنية، أو بصورة سرية- في تجمعات مختلفة (جيتو). وهي عدوى خطيرة جدا»[1] !

على هذا الصعيد، تحاول المجلات الأسبوعية المحافظة أن تقدم ذات الرسالة منذ خمسة عشر عاما («ماريان المحجبة» المشهورة في مجلة Le Figaro Magazine)، وهي رسالة أن «الإسلام يمثل عقبة أمام الاندماج، وأن مسلمي فرنسا لن يستطيعوا ذلك إلا إذا تخلوا عن التصور الجماعي لوجودهم. وفي غياب هذا التصور، سيبقى دائماً النظر إليهم كعناصر تخل بالعيش داخل المجتمع»[2]. ومثل هذا الوضع الأيديولوجي يقود هذه المجلات إلى القيام بحملات عنيفة ضد المنظمات والجمعيات الإسلامية

(١) كلود أمبير (Claude IMBERT)، الاندماج ضد الأصولية (L›intégration contre l›intégrisme)، مجلة (Le Point)، عدد ١٥٥٠، ٣١ مايو، ٢٠٠٢.

(٢) س. رباح (S. RABAH)، الإسلام في الخطاب الإعلامي (L›Islam dans le discours médi - tique)، مرجع سابق، ص. ٦٥-٦٦.

المعروفة بأنها «تجمعية»(communautariste) ، خاصة ضد اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا الذي يقدم على أنه نتاج «للمنظمة العالمية للإخوان المسلمين» ، على الرغم من أن أعضاءه وإدارته من الفرنسيين :

«إن شبكة قد توطنت تماماً في مدن فرنسية كبيرة تسعى لأن تضع ثقلها في مواطن القوة ، من الجامعات إلى حزب التجمع من أجل حركة شعبية (UMP) . وقد تحصلت مجلة (L›Express) على كراسة عملها بصفتها جماعة ضغط مخفية على أسطوانة مضغوطة (CD) لشريط غنائي مزيف لكارلا بروني (Carla Bruni) . وإرشادات العمل البالغة السرية هذه ، والتي تحدد اختراق الجهة المقصودة ، توزع على أعضاء الشبكة ، البالغ عددهم ستين مؤهلاً داخل حركة الطلاب المسلمين بفرنسا (EMF) أو اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا ، والذي - بالمناسبة - سجل تقدماً ذا دلالة في انتخابات المجلس الفرنسي للدين الإسلامي . هذه الوثيقة - وعلى الرغم من تحمسها وروح الانتصار فيها - مثيرة للاهتمام بما تحتوي عليه من برود تكتيكي ، ورغبة في السيطرة ، والقدرة السياسية والفلسفة الانتهازية . ليس هناك ما يشير إلى أن هذه التبشيرية الدينية يمكن أن يكون لها مستقبل ، لكن يجب أن نعرف أنها موجودة»[1] .

في المقابل ، وعلى الرغم من أنها - هي أيضا - تسهم في نشر رؤية أمنية

---

(١) جان ماري أمات (Jean-Marie AMAT) ، إيف بنوا (Yves BENOIT) «المسلمون الجدد . استراتيجيات من أجل إنشاء خلايا داخل الجمهورية» (Néo-islamistes. Stratégies pour noyauter la République) ، مجلة (L›Express) ، ١٧ أبريل ٢٠٠٣ .

لمواضيع الإسلام في فرنسا، فإن المجلات الإخبارية المنسوبة «لليسار» مثل (Le Nouvel Observateur)، وبصـورة أخص ماريـان (Marianne)، تظهر أكثر ارتباطاً «بالدفاع عن الأقليات المسلمة المهددة»: نساء مغاربيات خاضعـات للقوانـين الذكوريـة، ومثقفـين جزائريـين ضحايـا للإرهاب، و«مسـلمين علمانيـين» تسـيء السـلطات فهمهـم، وفتيـات الضواحي الرازحـات تحت رحمة النظام الأخلاقي الإسـلامي الجديد. هذا الرسـوخ للتقاليد الصحفية يظهر بوضوح في المطالبة بالخط الأيديولوجي. فمجلة (Le Nouvel Observateur) مسـتمرة فـي وضـع معركتها تحت شـعار انتمائها المناوئ للاسـتعمار: الاسـتقلال الجزائري، ومسـاندة العلمانية البورقيبية في تونس، إلخ. إن إدانة لبس الحجاب الإسلامي تستعير كثيراً لغة أبوية جمهورية تنتسـب لذات المعركة المتواصلة منذ سـتينيات القرن الماضي من أجل تحرير الرجل والمرأة في العالم العربي:

«كنـا نعتقد أنه سـيكون لدى الأطفال الوقت لتأكيـد اختلافهم عندما يصبحـون في سـن البلـوغ. وقـد قادتنا مناهضة الاسـتعمار إلـى الإيمان والرضـا بالاختلاف. والإخـلاص للجمهورية يقتضـي البحث عن نقاط التقـاء. وهـذا ما كان يمكن تعليمه للأطفال لـو أننا فهمنا من قبل أن حق الأرض دون اندمـاج في تقاليد البلد المضيف يعني التنازل لصالح مجتمع متعدد الأقليات تسعى فيه كل فئة إلى تغليب ما تسميه «حقوقها»»[1].

(١) جان دانييل (Jean DANIEL)، «رؤوس عارية» (Têtes nues)، مجلة (Le Nouvel Observ- teur)، عدد ٢٠٠٧، ٢٤ مايو ٢٠٠٣.

أما مجلة (Marianne) الأسبوعية[1] فإن معركتها الإعلامية ضد «الصائب سياسيا» يتوافق مع دفاع، يرقى لدرجة الهوس، عن الأطروحات الاستئصالية التي تؤمن بها بعض أوساط المثقفين الجزائريين. في الواقع، إن مواضيع الإسلام في فرنسا و العالم لا يتم النظر فيها إلا من خلال «أعراض الحالة الجزائرية»، أي الصراع بين «المسلمين المستنيرين» و «المسلمين الظلاميين». كل أسبوع، يعرض جان فرانسوا كاهن (Jean-François Kahn)، و مارتين غزلان، ومحمد صيفاوي الحرب الأهلية الجزائرية في مقالاتهم على أعمدة مجلة (Marianne). مثل هذا التركيز يقود المجلة الأسبوعية إلى المطابقة التعسفية بين المواقف المحافظة لبعض المنظمات الإسلامية في فرنسا مثل (UOIF, FNMF) من جهة، وبين التوجهات الإرهابية لبعض المجموعات المتشددة، من جهة أخرى. وما هو أكثر خطورة على أخلاقيات المهنة في هذه المجلة الأسبوعية «المتمردة على الأعراف» هو أنها تردد في كثير من الأحيان الأطروحات الرسمية لنظام الجنرالات الجزائريين متهمة بعض المثقفين الغربيين بالتواطؤ مع الإسلاموية العالمية، مواصلة بهذا التهيؤات المتعلقة بوجود لوبي فرنسي في خدمة الإسلاميين:

«ومن هذا ينتج أنه في فرنسا ذاتها، هناك جماعة مرتبطة بصورة قوية بالتاريخ المضطرب للجزائر، وتقيم علاقات قوية مع بعض وسائل الإعلام، لا تتوقف عن التوقع بأن النهاية الجزائرية ستكون التوافق السياسي مع

(١) راجع في هذا الكتاب الباب ذا العنوان «مسلمون خائفون من الإسلام».

«الإسلاموية المتشـددة» (أي الشكل الإسلامي للفاشية)، بل إنها- أكثر من ذلك- جعلت من نفسها المؤازر لكل الحملات التي تهدف إلى إعفاء الأصوليين، والجزائريين منهم خاصة، من جرائمهم [. . .]. هذا التعاطف الـذي وصـل إلى حد أن نجد مـن الطبيعي قيام أحـد البارزين، المقيمين في جنيف والمرتبط بالإخوان المسلمين، بالمرافعة دون غموض عن رجم النساء الزانيات [. . .] وهذا ليس مجرد إخطار بانتشـار الفاشـية الخضراء التي تسـمم العقول. فالأمر يتعلق بمعركـة الديمقراطية التي يطلب الملايين من المسلمين خوضها إلى جانبنا وبمساعدتنا. وليس من حقنا خيانتهم»[1].

إن الخطيـر في هذه التصورات عن الإسـلام هو فـي حقيقة الأمر، ليس «سيادة الفكر الأوحد» بقدر ما هو نزعة عامة لدى وسائل الإعلام في اتجاه لجعل معركتها وقيمها أدوات (أمر مشـروع دون شك) في خدمة «هوس أوحد» هو: مقاومة أسلمة فرنسا.

(١) فرانسوا داراس (François DARRAS)، توماس فالبير (Thomas VALLIERES)، "الإسلاموية على أبواب أوروبا" (L›islamisme aux portes de l›Europe)، مجلة (Marianne)، ١١-١٧ نوفمبر ٢٠٠٢.

الحراس الجدد للهيكل الإعلامي

يعمل النقاش على الصعيد العام دائماً وفق النموذج الذي «يشخصن» الكلام، لذلك يرمي منطقه إلى إبراز شخصيات تصدع باسم الجمهورية: إن ألن فينكيلكروت الذي يقدم برنامجا أسبوعيا على قناة فرنسا- الثقافية، والأكاديمي جان فرنسوا ريفيل (Jean-François Revel)، وهو كاتب أخبار ووقائع في مجلة (Le Point)، وجاك جوليار (Jacques Julliard) في مجلة (Le Nouvel Observateur)، والمتخصص في العلوم السياسية بيير أندريه تاجييف (Pierre-André Taguieff)، والمتخصص في علم الاجتماع إيمانويل تود (Emmanuel Todd)، وهم متعاونون منتظمون مع مجلة (Marianne)، تقوم مهمتهم الأساسية، بالتحديد، على ترديد المبادئ الكبرى لترابطنا الوطني و«الدعوة إلى مراعاة النظام»[1] لأولئك الذين يحاولون عدم التقيد به. ويزداد ظهورهم في وسائل الإعلام بمجرد مناقشة موضوع يتعلق بالإسلام و«أضرار» الأصولية الإسلامية:

«نعم، إننا نتوجس خيفة من سذاجة أولئك الذين يدينون، في مواجهة بعض الادعاءات الإسلامية، عودة النظام الأخلاقي خلف كل التساؤلات حول الحضور المكثف لمظاهر الخلاعة، ووصفهم بـ«ذي المخاوف من

(١) دانييل لنديبيرج (Daniel LINDENBERG)، الدعوة لمراعاة النظام. استبيان حول الرجعيين الجدد، (Le Rappel à l›ordre. Enquête sur les nouveaux réactionnaires) دار نشر (Seuil)، باريس، ٢٠٠٢.

الإســلام» كل من ينتقد معاداة الأصولية الدينية الإسـلامية للمرأة. نعم، إننا نخشـى التخلـي عن مبـادئ العلمانية، التي تـزدرى لأن منافعها في إرساء السلم أصبحت ظاهرة للعيان»[1].

في أوقات التململ الذي يمس الهوية، تقوم المؤسسات ووسائل الإعلام الوطنية الكبرى بدعوة أصحاب «الوعي المسـتنير»، ليقوموا بدورهم في توضيح قيمنا الجمهورية. فحـول العديد من المواضيع المتنوعة كالحجاب الإسـلامي، أو تنظيـم شـؤون الدين الإسـلامي فـي فرنسـا، أو الإرهاب الإسـلامي، أو الاضطرابـات فـي الضواحـي[2]، تقـوم هذه المؤسسـات بتنصيب نفسـها حراسـاً للأخلاق الجمهورية، وتفرض حكمها ورقابتها بوصفها سـلطة فيما يتعلق بكل محاولات خرق وهدم المبادئ الثابتة[3]. فخطابهـا التحذيـري غايتـه الضمنيـة تتمثل فـي التعبير عن «مشـاريع ودعـوات حقيقية إلى تنظيم واقع مضطرب، أو متأزم»[4]. وخلافاً لمنطق

---

(١) ألن فينكيكروت (Alain FINKIELKRAUT)، مارسـل جوشـيه (Marcel GAUCHET)، بيير مانان (Pierre MANENT)، فيليـب موراي (Philippe MURAY)، بيير أندريه تاجييف (Pierre-André TAGUIEF)، شوموبل تريجانو (Shmuel TRIGANO) و بول يونيه (Paul YONNET)، «بيان من أجل تفكير حر»، (Manifeste pour une pensée libre)، مجلة (L'Express)، ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٢.

(٢) والتي يتم تفسيرها أحيانا في وسائل الإعلان بأن تشدد المنظمات الإسلاموية يثير عند شباب الضواحي قلقا جنسيا عميقا.

(٣) هـوج جالون (Hugues JALLON)، بيير مونييـه (Pierre MOUNIER)، المولعون بالجمهورية، (Les Enragés de la République)، دار نشر (La Découverte)، ١٩٩٩.

(٤) ج. ر. هنـري (J. R. HENRY)، إي. فريغوزي (E. FREGOSI)، «تنوعات فرنسـية عن الإسـلام الخالد. في سبيل تصنيف للخطابات» (Variations françaises sur l'islam éternel. Pour une typologie des discours)، في برونو إتيان (Bruno Etienne)، الإسلام في فرنسا، منشورات المركز الوطني للأبحاث العلمية (CNRS)، باريس، ١٩٨٨، ص. ١١٨.

البحث العلمي، نجد أن خطاب هؤلاء المثقفين، الذين تعينهم وسائل الإعلام، لا يهدف إلى فهم الحقائق الاجتماعية وإنما إلى فرض إطار معياري يفترض أنه قابل للتطبيق على المسلمين الناهضين وعلى السلطات العامة المتساهلة تجاه التجمعات الفئوية. وهكذا فكتّاب المقالات، والافتتاحيات الصحفية، والمثقفون الإعلاميون يتشاركون فن التبسيط لأقصى حد، والذي يغرسونه متكاتفين من خلال «موقفهم ضد التعقيد». فهم يقضون وقتهم في «بذل الجهد في تحويل ذلك الكم الهائل من التساؤلات إلى مجموعة من التأكيدات»[1]، و«عوضا عن وضع [طرقهم] في التحليل موضع الشك، [فإنهم] يميلون إلى التشكيك في الواقع. وعندها تدور آليتهم في الفراغ، فلا يعود لها من مرجع غير ذاتها»[2]. وهذه الطريقة المعيارية للمثقفين الإعلاميين حال تناولهم للإسلام ينتج عنها ثلاثة أمور جوهرية: أولا، الاتجاه لتجاهل ذاتية النشطين «المسلمين»، فلا يتم الرجوع إلى رأيهم إلا من أجل دعم قناعاتهم الجمهورية. وثانيا، الميل إلى استعمال المرجعيات العلمية بصورة انتقائية، مستبعدين كل الآراء المخالفة للمحللين الاجتماعيين وللدراسات «الميدانية». وأخيرا، ممارسة نوع من الانتقائية تجاه المثقفين من «الصف الثاني»، ممن يرون أنهم مقبولون داخل الدائرة الضيقة للمثقفين الإعلاميين. ومعيار القبول الرئيس هو «الواقعية

(١) ف. أوبيناس (F. AUBENAS)، م. بن الصائغ (M. BENASAYAG)، «صناعة المعلومة» (La Fabrication del›information)، مرجع سابق، ص. ١٠٤.

(٢) المرجع السابق، ص. ٥٨.

الأمنية»، التي تجعل من بعض المؤلفات عن الإسلام أو عن الخطر الإسلاموي موضوعاً للتعليق والتلخيص الزاخر بالإطراء، في حين يتم تجاهل البعض الآخر من المؤلفات لأنها تعتبر مثالية جداً، بل وداعمة للإسلام. فعلى سبيل المثال نجد أن كتاب فرنسا المساجد[1] للصحفي إكزافييه تيرنيزيان (Xavier Ternisien) في صحيفة (Le Monde)، قد تم تجاهله تماما من قبل المثقفين الإعلاميين ولم تتناوله بأي تحقيق الصحف الوطنية الكبرى. وقد عمد مؤلف الكتاب- حقيقة- إلى عدم الخوض في الإثارة وفي أيديولوجيا الخوف وفضل الاستقصاء الدقيق داخل الأوساط الإسلامية المختلفة في فرنسا. وعلى العكس من ذلك، نجد أن كتاب جان هيلين كالتينباخ (Jeanne-Hélène Kaltenbach) وميشيل تريبالا (Michele Tribalat) بعنوان: الجمهورية والإسلام.. بين الخوف والعمى، الذي لا يتناول غير تخلي السلطات العامة عن مواجهة «التجمع الإسلامي» ولا يستند على أي استقصاء ميداني، قد تم تلقيه بحفاوة نقدية وإطراء كبير من المثقفين في وسائل الإعلام:

«صدرت بعض الكتب المهمة لمؤلفين مختلفين باتجاهات ومحتويات مختلفة أيضاً، واضعة بذلك نهاية لسنة من الصمت المثير للقلق، وتطرح اليوم نقاشا حقيقيا وجديا وصعبا. وكل هذه الكتب تضع موضع التساؤل الجهل والسذاجة اللذين يسودان في هذه القضايا. فهي تتفق

(١) إكزافييه تيرنيزيان (Xavier TERNISIEN)، فرنسا المساجد (La France des mosquées)، منشورات (Albin Michel)، باريس، ٢٠٠٢.

على الاعتقاد بأن مشـكلة وضع الإسـلام هي اليوم أمامنا (مسلمين وغير مسلمين) . شبيهة بقضية الكاثوليكية التي نسينا عنفها ، والتي أصبحت الآن وراء ظهورنا ».[1]

فـي الواقع ، إن ما يهم مثقفينا الإعلاميين ليس «المسـلمون الحقيقيون» بقدر ما هو « التهديد الإسلامي» المبني عن طريق الخيال والتهيؤات .

(١) أريك كونان (Eric Conan) ، «الإسـلام : مالا نجرؤ على قوله» (Islam : ce que l›on n›ose pas dire) ، مجلة (L›Express) ، ١٢ سبتمبر ٢٠٠٢ .

قضيتا

فلاتشي (Fallaci) وهويلبيك (Houellebecq):

المسلمون أطياف شبحية لعالم ثقافي صغير

لقد ظهر ميل المثقفين الإعلاميين نحو إخفاء الذاتية المسلمة قوياً جداً في تناولهم لقضيتين. الأولى محاكمة الكاتب ميشيل هويلبيك (Michel Houellebecq) بسبب «الاشتراك في التحريض على التمييز والكراهية والعنف تجاه مجموعة من الأشخاص بسبب انتمائهم الديني (الإسلام)». والثانية بمناسبة صدور الكتيب المفعم بكراهية الأجانب، الغضب و الكبرياء (La Rage et l›Orgueil)[1]، في فرنسا، للصحفية الإيطالية أوريانا فلاتشي (Oriana FALLACI).

في سبتمبر ٢٠٠١، وقبل اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر في نيويورك بعدة أيام، نشرت المجلة الأدبية اقرأ (Lire) لقاءً مع الكاتب ميشيل هويلبيك بخصوص كتابه الأخير «المسطبة» (Plateforme)، صرح فيه بأن:

«الإسلام هو الدين الأكثر غباء. إننا عندما نقرأ القرآن ننهار... ننهار! على الأقل الكتاب المقدس (La Bible) جميل، ذلك أن اليهود

(١) أوريانا فلاتشي (Oriana FALLACI)، الغضب والكبرياء (La Rage et l›Orgueil)، دار نشر (Plon)، باريس، ٢٠٠٢.

لديهم موهبة أدبية رائعة... وهو ما نجد فيه العذر لكثير من الأشياء. كما إنه لدي بقية تعاطف مع الكاثوليكية بسبب فكرة تعدد الآلهة (polythéiste). إضافة إلى أنه تعزى لها كل هذه الكنائس والزخارف الزجاجية والمنحوتات...»[1].

ويبرر الكاتب، من جهة أخرى، السلوك المضاد للإسلام لدى الشخصية الرئيسة في روايته، «المسطبة»، والتي تدعى- مثله- ميشيل:

«لم تسنح لي الفرصة أن أجرب الانتقام. لكن في الحال الذي يعيشه ميشيل (الشخصية الروائية) فمن الطبيعي أن تكون عنده الرغبة في قتل أكبر عدد من المسلمين... نعم... نعم، هذا الشعور بالرغبة في الانتقام موجود. إن الإسلام منذ ظهوره دين خطير. ولحسن الحظ فإنه مذموم. من جهة لأن الله لا وجود له، وحتى إذا كنا مغفلين فإن الأمر ينتهي باكتشافنا لذلك، فعلى المدى البعيد تنتصر الحقيقة. ومن جهة أخرى، فالرأسمالية تنسف الإسلام من الداخل. كل ما يمكن أن نتمناه هو أن تنتصر بسرعة. فالمادية أقل شراً. صحيح أن قيمها سيئة، ولكن مع ذلك فهي أقل تدميرية وقسوة من قيم الإسلام»[2].

كما يؤكد الكاتب ميوله التي تحمل مخاوفه من الإسلام في مقابلة مع الصحيفة الإقليمية «الرأي الحر» (L›Opinion indépendante)، والتي مرت دون أن يفطن إليها أحد:

---

(١) اقرأ (Lire)، سبتمبر ٢٠٠١م. هويلبيك (M. Houellebecq)، المسطبة (Plateforme)، دار نشر (Flammarion)، باريس، ٢٠٠١.

(٢) سابق.

«إنــه لأمر مرعب. بدأنا نتحدث في بعض الصحف عما كنت أفكر فيه من فترة طويلة، وهو أن الأصولية الإسـلامية ليسـت انحرافا عن الإسلام كما يقدمه القرآن، وإنما هي بالضبط فهم متناغم مع القرآن. وما يدهشني هـو أن عددا كبيـرا من العاملين فـي المجال الإعلامـي لا يزالون يكررون أن الرسـالة الحقيقية للإسلام رسالة تسـامح وأنها تحرم القتل، وفيها كل الاحترام لأتباع المعتقدات الأخرى...»[1].

في واقع الأمر، إن المخاوف من الإسلام لدى هويلبيك ليست إلا واجهة لرؤية للعالم تزعم بأنها «واقعية»، ولكنها تصب بسهولة في اتجاه النظام الأخلاقـي تحـت غطـاء التمرد في الأدب: «بمـا أن الروائي يزعـم أنه يبين ويشـرح لنا العالم الذي يعيش فيه، فإنه لا مجال للشـك فيه! هذا الرياء المـا بعد حداثي يسـمح بأن تـرد على القارئ الذي يمعن في النقد سـهامه التي يصوبها نحو الروائي: إن القارئ الذي يتجرأ على توجيه النقد ليس إلا تابع للفكر الأوحد. إنه شخص رقابي، محقق يرغب في إعمال مقص الرقيب في الأدب باسم الصائب سياسياً والرأي الصحيح»[2].

أمـا فيما يتعلـق بكتيّب «الغضـب والكبريـاء» لأوريانا فلاتشـي فإن المخـاوف من الإسـلام فيه من نـوع مختلف. الأمر لا يتعلـق برواية وإنما عبارة عن مجموعة من الآراء الملتهبة المفعمة بالمخاوف من العرب والإسلام

(١) صحيفة (L›Opinion indépendante) بمنطقة تولوز، ٧ نوفمبر ٢٠٠١.

(٢) هـذا النقد المنشـور في العمل الجماعـي «أهمية الكلمـات» (Les mots sont importants)، قدمها الكاتـب قبل ظهور عمله المسـطبة (plateforme) ويتعلق بكل أنواع مخاوفه وليس فقط بخوفه من الإسـلام، مذكور في «البربرية المابعد حداثية» (La Barbarie postmoderne)، ١٩٩٨.

و «العالـم الثالث» تمت كتابتها فـي صبيحة الأحداث الإرهابية في الحادي عشر من سـبتمبر . هذا الكتيب المشـحون بالكراهية ، والذي بيعت منه ملايين النسـخ في العالم أجمع ، تطلق فيه الصحفية الإيطالية العنان لكل تهيؤاتها عن الإسلام والمسلمين والعرب :

«المشكلة أن موت أسامة بن لادن ليس هو الحل . وذلك لأن أمثاله ليسوا في البلاد الإسلامية فقط . إنهم في كل مكان ، والأكثر تمرساً على الحرب يعيشون عندنا . إن الحروب الصليبية المعاكسة- يا عزيزي- مستمرة منذ فتـرة طويلة ، وأكثر ما تتغذى عليه الضعـف الغربي وحياؤه وعدم قدرته على استشراف المستقبل [...] . إن جنود هذه الحروب قد أخذوا أماكنهم واسـتولوا عليها كما اسـتولى أجدادهم على أسبانيا والبرتغال من القرن التاسـع إلى القرن الخامس عشـر . إنهم يتزايدون الآن ، وسوف يتزايدون في المستقبل ، وسيطلبون المزيد ، ومن يعيشون على ترابنا اليوم ليسوا إلا طلائعهم . إذن ، فالتفاوض معهم مسـتحيل ، والتحدث معهم بعقلانية لا يمكن تصوره . ومعاملتهم بتسامح ، وود ، وأمل هو انتحار . ومن يرى غير ذلك فإنه بائس ومغفل»[١] .

هكذا فإنها لا ترى في الإرهاب الإسـلامي انحرافا عن الإسلام وإنما هو جوهره ، إنه النهاية المنطقية للمشروع المحمدي الأساسي :

« سـتبقى المشـكلة حتى ولو اعتنق أسـامة بن لادن البوذية ولو تحولت

(١) أوريانا فلاتشي (Oriana FALLACI) ، الغضب والكبرياء (La Rage et l›orgueil) ، مرجع سابق ، ص . ١٠٥-١٠٦ .

عناصـــر طالبان إلى الليبرالية. ذلك أن أســامة وعناصر طالبان (ولن أمل مــن ترديد ذلك) ليســوا إلا الظهور الأكثر معاصــرة لحقيقة موجودة منذ ألــف وأربع مئة عــام. إنها الحقيقــة التي يغمض الغرب عينيــه عنها دون تفسير. نعم يا عزيزي، منذ عشرين عاما، أي قبل ظهور أسامة بن لادن، رأيت من يســمون أنفســهم أولاد الله يعملون. رأيتهم يدمرون الكنائس، ويحرقون الصليب، ويدنســون نصب الســيدة العــذراء، ويتبولون على المنابر الكنسية محولينها إلى مراحيض»[١].

وباستثناء الفيلســوف ألن فينكيلكروت الذي أظهر تفهما للمخاوف من العرب والإسلام لدى الصحفية الإيطالية ممتدحاً فيه «شجاعتها»، فإن غالبية المثقفين الإعلاميين قد وجهوا نقدا شــديد لكتيب فلاتشــي. فهذا برنــار هنري ليفي (Bernard-Henri Lévy) مثلا يكتب بهذا الخصوص «يوجد شيء من سيلين (Céline)[٢] في تلك المدعوة فلاتشي. بل أسوأ ما عند ســيلين. إنه سيلين الذي نجده في عمله «مبلغ زهيد في سبيل مذبحة»

---

(١) سابق، ص. ١٣٤.

(٢) يشــير الكاتب والفيلسوف اليهودي ليفي إلى الروائي الفرنســي المشهور لويس فيرديناند سيلين (C - line Louis-Ferdinand) الــذي عــاش بــين (١٨٩٤-١٩٦١) وهــو أحد أشــهر روائيي فرنســا في النصف الأول من القرن العشــرين. وقد اشــتهر بأسلوبه الفريد على المســتوى اللغوي والفكري والوصفي... منذ روايته الأولــى «رحلــة إلى أقاصي الليــل» (Voyage au bout de la nuit). لكنه نشــر رواية «مبلغ زهيد في ســبيل مذبحــة» (Bagatelles pour un massacre) عام ١٩٣٧، المشــار إليها هنا، وكذلك رواية «مدرســة الجثث» (L›Ecole des cadavres)، عام ١٩٣٨ واللتين اتخذ فيهما موقفا من اليهود، مما أسخط عليه أغلبية المهتمين بالشــأن الأدبي والاجتماعــي والثقافي. ولقد تم تجاهله إلى عام ١٩٥٧ عندما تمت اســتضافته في البرنامج الأدبي «القراءة للجميع» الذي يقدمه بيير دومايت (Pierre Dumayet). (المترجمان).

(Bagatelles pour un massacre) . مستخدماً ذات المفردات لإطلاق صرخته، ليس ضد أبناء الله وإنما ضد أبناء موسى»[1] .

في المقابل فإن ميشيل هويلبيك، كاتب «الموجة الجديدة»، وجد دعما عاما من المثقفين الإعلاميين باسم الحق في الخيال الأدبي . بل إن العديد منهم قد تحرك في أثناء محاكمته أمام محكمة الجنح يوم ١٧ سبتمبر ٢٠٠٢ من خلال جمع تواقيع بعض الشخصيات المنتمية لعالم الأدب والثقافة معتبرين أن :

«متابعة هويلبيك قضائيا هي عمل تعسفي . وباستنادها، الذي يحمل التناقض، على مادتين في قانون ٢٩ يوليو ١٨٨١ الهادف إلى حماية حرية الصحافة، فإنها تعيد تأسيس جنحة القذف التي ألغيت فعليا في فرنسا منذ ملكية يوليو . وأصبح ذلك قانوناً منذ فصل الكنيسة عن الدولة . إن تكوين رأي عن الأديان، وتفضيل أحدها، أو رفضها كلها، جزء من حرية التعبير الأساسية في الديمقراطية التي ننتمي لها . فالعلمانية مكتسب تاريخي بالنسبة لنا، وحق نتج من نضال عسير . لذلك فإن العودة للخلف والسماح برؤية التحريض والسلوك المعادي للحرية، الذي اضطرت الكنيسة الكاثوليكية لرفضه، ليس محل نقاش»[2] .

---

(١) ب . هـ. ليفي (B.-H. LEVY)، «أوريانا فلاتشي: الإثارة غير المقبولة (L›inacceptable provocation)، مجلة (Le Point)، ٣٠ مايو ٢٠٠٢ .

(٢) مقتطف من المنشور الذي وزعته جمعية أصدقاء ميشيل هويلبيك . ومن بين الأسماء المشهورة الموقعة عليه، نجد ريجين ديسفورج (Régine Fesforges)، وميشيل ديون (Michel Déon)، وبرنار فرانك (Bernard Franck)، أوليفييه السايس (Olivier Assayas)، وجان- مارك روبير (Jean-Marc Roberts)،

ما تجدر الإشارة إليه من التناول العام لهاتين «القضيتين» (فلاتشي وهويلبيك) ليست المخاوف من الإسلام لدى الكاتبين (وهو شيء نعرفه مسبقا)، ولكن عدم ظهور أي تعليق إعلامي إسلامي. وكل النقاش الذي حدث لم يتطرق نهائيا للضرر الذي وقع على الضحايا (المسلمين)، وإنما كان حول "المعيار" المحدد بصورة فردية من المثقفين الإعلاميين: "ما يمكن قوله ومالا يمكن قوله عن الإسلام". ومثل هذا السلوك ينتهي بتحديد جرعة المخاوف من الإسلام التي يسمح بها ويقبلها مجتمعنا الفرنسي: فتجاوز الحد الذي وصلت إليه (قضية فلاتشي) لا يسمح به لأنه يذكر بمعاداة السامية التي ظهرت في الحقل الثقافي في فترة ما بين الحربين العالميتين (كما يوضح ذلك الاستشهاد المستمر بسيلين في كل المواقف). ولكن دون هذا الحد، فإن الأمر مباح، بل ومطلوب لأنه يساهم في الحث على «حرية التفكير»، وبالتالي دعم قيمنا العلمانية والجمهورية:

«إن فلاتشي مرعبة بصورة إيجابية. فهي تلمس عند القارئ شيئاً في أعماقه، شيئا غير معلن ويمتنع دائماً أن يفكر فيه، ولكن هذه الصفحات التي يثقلها الكره والاحتقار قد تلقي الضوء على هذا الشيء بصورة عنيفة: الكره الذي يوحي به «الآخر» لكل «غربي»، وليسامحني الله. لحسن الحظ أن هذه الحساسية ليست حتمية. لكن أوريانا فلاتشي، ومن خلال عنف المرأة التي ترى بعض نظام الكون يتصدع، تثور على ذلك في كبرياء ومن أعماقها. «لم تعودوا فحولاً» أيها الرجال، كانت صرختها

وجابريل متزنف (Gabriel Matzneff)، وفيليب سولير (Philippe Sollers)

في وجهنا، والتي تصل حد الصفاقة دون أن تخلو من الروعة.[1]

في هذا الإطار، من إضفاء المشروعية على «المعيار»، من المناسب أيضا وضع عملية تحويل الخطاب العلمي عن الإسلام إلى أداة. فهذا الخطاب يتم اللجوء إليه من أجل دعم الإطار المعياري الذي يفرضه المثقفون الإعلاميون دون سواهم، وليس من أجل محو الصور النمطية القائمة على المخاوف من الإسلام.

(١) فرنسواز جيرو (Françoise GIROUD)، «رحلة إلى نهاية الكراهية» (Voyage au bout de la haine)، مجلة (Le Nouvel Observateur)، ٣٠ مايو، ٢٠٠٢.

المثقفون الإعلاميون و العلماء: علاقات أثيمة؟

إن استدعاء الإعلام للعلم لا يتم عن طريق البحث (« دعونا نر ما يقوله الباحثون من أجل تبديد أحكامنا المسبقة») وإنما - فقط - كطريقة لدعم خطاب مثقفي ذلك العالم الصغير، وهو ما يساهم أكثر في تقوية تلك النغمة التدميرية: « ففي حين يسعى الباحث لتفسير الظواهر عن طريق نتائج البحث، تقوم القوة الإعلامية بتحديد إطار للتواصل غير عقلاني ويسيطر عليه منطق المشاعر، حيث لا يصبح الخبير سيدا على تلقي خطابه. وهذا، للأسف الشديد، شيء سلبي في الفاعلية الاجتماعية للخطاب العلمي»[1].

بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ نتج نوع من التشدد في خطاب المثقفين الإعلاميين مثل أ. فينكيلكروت، و ب.أ. تاجييف، و ج.ف. ريفيل مجبرين بذلك العلماء على اختيار «معسكرهم هذا» (أفي هذا إفراط في المثالية أم مجرد واقعية؟). وبتأثير من هذه التقابلية، أصبحت مداخلات علماء الاجتماع والسياسة، المتخصصين في الإسلام، في وسائل الإعلام، أقل «عقائدية» مما كان في الثمانينيات. وبعض هؤلاء العلماء ممن كانوا مستشارين لدى وسائل الإعلام تم تهميشهم مؤقتاً.

«من خلال تدمير توأمي مركز التجارة العالمي، لم يسخر «مجانين الله»

---

(١) ج.ر. هنري (J.-R. HENERY)، ف. فريغوزي (F. FREGOSI)، «وسائل الإعلام الشيطانية» (Les médias satanique)، مجلة (Le Nouvel Observateur)، مرجع سابق، ص. ٨٧

من وكالة المخابرات الأمريكية والمباحث الفيدرالية فقط، بل وأخذوا التجمع العلمي المهم للمتخصصين الفرنسيين في دراسات الإسلام على حين غرة [...]. ويبقى الحال أن هناك -فقط- عددا قليلا من الخبراء هم الذين توقعوا مسبقا الانفجار الحالي للكراهية الدينية. والسؤال الذي لا يمكن تجاهله هو: ألم يكن لدى المتخصصين في دراسات الإسلام، سواء بسبب مثاليتهم أو اهتمامهم بفكرة «الصائب سياسيا»، ميلا لتهميش التهديد الذي يشكله ابن لادن على العالم؟ وبقراءة بعض الكتب، يظهر المتعصبون للشريعة وكأنهم منتمون لنوع من اللاهوت التحرري أكثر منهم داعمين لشمولية تحت العمائم ... والخوف من الإسلام. بعض «الرسومات الكاريكاتورية»، و«التهيؤات المثيرة للقلق»للصحفيين الغربيين [...]. في الواقع، مهما فعل الغرب فإنه سيبقى دائما، في أعين المتخصصين البارزين في الإسلام مثل برونو إتيان، أوفرنسوا بورغا (François Burgat)، أو جوسلين سيزاري (Jocelyne Cesari)، أكبر جرماً من الشرق، وإسرائيل أكبر جرماً من الفلسطينيين، والجنرالات الجزائريين أكثر إجراماً من الجماعة الإسلامية المسلحة ...»[1]

هذا التهميش للخطاب العلمي عن طريق المثقفين الإعلاميين له تأثيران رئيسيان: إعطاء قيمة إعلامية لخبراء الأمن مثل (أنتوان صفير (Antoine Sfeir)، ألكسندر دل فال (Alexandre Del valle)، أنتوان

---

(١) فرنسوا دوفاي (François DUFAY)، «النبوة الخطأ للمتخصصين في الإسلام»، (La fausse pr -phétie des islamologues)، مجلة (Le Point)، ٥ أكتوبر، ٢٠٠١.

بسبوس (Antoine Basbous) ، فريديريك إنسل (Frédéric Encel)) ، وتقديم باحثين أصبح لهم حظوة شعبية ، على الرغم من عدم تخصصهم في الإسلام، وذلك بسبب ادعاء «الواقعية» في مواجهة مخاطر أسلمة الضواحي في فرنسا . والرمز الأكثر تمثيلا ، والأكثر حضورا إعلاميا لهذا النوع من التطور يتمثل دون شك في مديرة البحوث في المعهد الوطني للدراسات السكانية (INED) ميشيل تريبالا . فلقد ساهمت دراساتها السابقة في مراجعة بعض الأحكام العنصرية المسبقة عن المتحدرين من أصول مهاجرة واعتماد فكرة ضرورة الإدارة المتوازنة للتعدد الثقافي ، من قبل السلطات الرسمية[1] . وفي عام ١٩٩٧ ومن خلال أعمدة (L›Humanité) دافعت ميشيل تريبالا عن الاستيعاب المعتدل (assimilationnisme moderé) متهكمة من الذين يحنون إلى «فرنسا الخالدة» حيث تقول : «يجب التوقف عن الخوف من (الاختلاف الثقافي) حيث يمكن للخصوصيات أن تتصالح ، كما أن المتابعة لا تؤكد فكرة أن المهاجرين من الثقافة الإسلامية غير قادرين على تقبل مبدأ العلمانية وأقلمة سلوكهم . وأضيف أن الارتباط بالهويات المتعددة قد وجد دائما

(١)م. تريبالا (M. TRIBALAT) (إشراف) ، مئة عام من الهجرة ، غريبو الأمس فرنسيو اليوم (Cent ans d›immigration, étrangers d›hier Français d›aujourd›hui) ، منشورات (PUF-INED) ، ١٩٩٩ ؛ من الهجرة إلى الاستيعاب (De l›immigration à l›assimilation) ، بالاشتراك مع باتريك سيمون (Patrick Simon) و بنوا رياندي ، منشورات (La Découverte / Ined) ، ١٩٩٦ ؛ فعل فرنسا (Faire France) تقديم مارسو لونغ (Marceau Long) ، منشورات (La Découverte) ، باريس ، ١٩٩٥ .

دون أن يكون هناك تعارض مبدئي بينه وبين الهوية الوطنية»[1]. وبعد خمس سنوات، أخذت المتخصصة في علم السكان بتوجيه نقدها الجذري للتعدد الثقافي، والذي تتهمه بأنه سبب كل المشاكل، وتجعل مسؤولية ذلك على تعاطف السلطات الرسمية الفرنسية مع الحركات الإسلامية في فرنسا. وتعبر مواقفها، داخل المجلس الأعلى للاندماج والذي استقالت منه في نوفمبر ٢٠٠٠ عند تقديم التقرير لرئيس الوزراء[2]، عن الانضمام لحملة فكرة الاستيعاب التام دون تراجع. وفي كتابها المشترك مع جان هيلين كالتينباخ[3]، تتوافق في نقاط عديدة مع الأحكام المسبقة المتعلقة بالمخاوف من الإسلام لدى المتخصصين في الجيوبوليتيك، بل ذهبت إلى تبني أفكار كتاب اليمين المتطرف، من أمثال دل فال، فيما يزعم أنه مسؤولية «النخبة الفرنسية» في انتشار الإسلاموية:

«إن التنبيه ليس موجها إلى الرأي العام وإنما إلى سياسيينا، ومثقفينا، وصحفيينا الذين يبدو أنهم مسحورون. والواقع أن هذا الحماس للإسلام يبدو لنا مبالغا فيه، حيث إنه يتنكر للشعور الشعبي دون أي اهتمام

---

(١) جان بول مونفيران (Jean-Paul MONFERRAN)، لقاء مع م. تريبالا (M. Tribalat)، صحيفة (L'Humanité)، ٢٧، مارس ١٩٩٧.

(٢) الإسلام في الجمهورية (L'Islam dans la république)، باريس، نوفمبر ٢٠٠٠

(٣) تبنت جان هيلين كالتنباخ (J.-H. KALTENBACH) مع زوجها بيير باتريك كالتنباخ (Pierre-Patrick KALTENBACHE) كتاب «فرنسا. فرصة للإسلام» (La France. Une chance pour l'islam)، دار نشر (Le Félin)، باريس، ١٩٩١، وكتبت بالاشتراك مع برونو إتيان (Bruno Etienne) كتاب «أن تكون بروتستانتيا في فرنسا اليوم» (Etre protestant en France aujourd'hui) دار نشر (Hachette)، باريس، ١٩٩٧.

بالحقيقة. وإذا كان هناك جزء من الرأي العام لديه مخاوف من الإسلام فذلك لأنه قلق»[1].

في ذات هذا السياق من تنامي اللجوء إلى الخبراء «الواقعيين» في سبيل تبرير الخطاب الكارثي للمثقفين الإعلاميين، يتم استدعاء مثقفين مسلمين ممن يسمون «معتدلين»، والذين يظهرون كسند عرقي (cautions ethniques) للخطاب العام حول الخطر الإسلامي.

(١) لقاء مع ميشيل تريبالا (Michèle TRIBALAT)، صحيفة (France catholique)، عدد ٢٨٥٧، ٢٢ نوفمبر ٢٠٠٢.

الخيرون والسيئون:

الصناعة الإعلامية للأبطال وأعدائهم وسط المسلمين

في آن واحد تعمل وسائل الإعلام كمصنع وكأداة لإضفاء المشروعية على قادة الرأي من المسلمين الذين تتم الاستعانة بهم كثيرا لتدعيم الخطاب الأمني حول الإسلام في فرنسا. فهؤلاء القادة، باختصار، لا مكان لهم إلا في إطار غاية واضحة يحددها المثقفون الإعلاميون فقط وهي: الاحتفاء بالقيم الرئيسة للترابط وإدانة الخطر الداخلي. ويمكن اعتبار دعوتهم نوعا من لعب الأدوار يكون قد تم توزيعه على الممثلين بصورة معدة سلفا: المثقف العربي الذي يكافح الأصولية الإسلامية في بلده الأصلي؛ وداعية حقوق المرأة الجزائرية التي هي ضحية عنف «مجانين الله»؛ والمفتي المستنير الذي يرفض القراءة الظلامية للقرآن، دون أن ننسى الفتاة الفرنسية «المتحررة» والمنحدرة من أصول عربية مغاربية (La Beurette)، والتي تحذر الرأي الفرنسي من التأثيرات السلبية للإسلاموية في الضواحي الفرنسية. «إنهم أبطال مسلمون جدد» يقوم بعملية تسويقهم مثقفو الإعلام، إضافة إلى أنهم يقدمون كمن «لم يتم فهمهم» بسبب أن السلطات الرسمية تفضل ربما التعامل مع القادة الأصوليين أكثر منه مع المثقفين المعتدلين:

«عندما أبدى علانية بعض الفرنسيين المسلمين الليبراليين الجادين، والذين يزيد عددهم يوما بعد يوم، أنه من المجازفة بمكان أن يسمح للأصولية الجديدة بممارسة تأثيرها على مواطني الجمهورية، فما سمعوه هو أنه : «من الأفضل أن يكونوا داخل الحوار على أن يكونوا خارجه»[١].

في هذا السياق يمثل برنامج «تكملة بحث» (Complément d›enquête)، الذي تم بثه يوم ٢٧ يناير ٢٠٠٣ على القناة الفرنسية الثانية، مثالا جيداً لطريقة العرض الإعلامية للتهديد الإسلامي في فرنسا. فإضافة إلى حضور كل الأحكام المسبقة والصور النمطية السالبة، استدعى البرنامج الذي يقدمه بنوا دوكوسن (Benoit Duquesne) كل «الضمانات الإسلامية» الممكنة لخطاب المخاوف من الإسلام. فكان حاضراً: الصحفي الجزائري «التقدمي» محمد صيفاوي والذي قام بدافع من «حسه المهني» بالتنكر في صورة إسلاموي (islamiste) من أجل الإيقاع بشاب إرهابي إسلامي هو كريم بورتي والذي يفترض قيامه بالتحضير لتفجيرات على الأراضي الفرنسية[٢]؛ والكاتبة الجزائرية

(١) جان دانييل (Jean DANIEL)، «رؤوس عارية» (Têtes nues)، مقال مذكور.

(٢) يسرد م. صيفاوي (M. SIFAOUI) أحداث هذه «المغامرة الصحفية» في كتابه، «إخواني القتلة». كيف اخترقت إحدى خلايا القاعدة (Mes frères assassins. Comment j›ai infiltré une cellule d›Al-Qaïda) منشورات (le cherche midi)، باريس، ٢٠٠٣. البعض، كالصحفي جان باتيست ريفور (Jean-Baptiste Rivoire) من قناة (Canal plus) يعتقد أن هذا العمل الوثائقي هو تلاعب من صنع السلطات الأمنية الجزائرية، التي يمكن أن يكون محمد صيفاوي عميلاً لها اخترق أوساط الصحافة الفرنسية. انظر برنامج «وقفة على صور» (Arrêt sur images)، يوم ٩ يناير ٢٠٠٣.

المدافعة عن المرأة لطيفة بن منصور التي دعت في مقابلة أجريت معها إلى الحرب ضد أولئك (الإسلاميين الهمجيين) الذين يريدون القضاء على العنصر النسائي؛ والفيلسوف العربي المستنير التونسي عبد الوهاب ميدد الذي يناهض استغلال النصوص الدينية من قبل بعض الجمعيات المتشددة؛ والخبير في الشؤون الأمنية، المدافع عن القضايا العربية ولكن لديه مخاوف من الإسلام، اللبناني أنطوان صفير الذي أعطى درسا في الجيوبوليتيك عن الإسلاموية العالمية؛ وأخيرا أحد النخبة من أصول عربية، رشيد كاسي من حزب التجمع من أجل حركة شعبية (UMP) الذي يحذرنا من الاستغلال الذي تمارسه الجمعيات الإسلاموية لسكان الضواحي.

وهكذا فكل المكونات «العرقية» كانت حاضرة في البرنامج من أجل هدف واحد هو تحذير المواطنين الفرنسيين من التهديد الوشيك الذي تمثله بعض المنظمات الإسلامية مثل اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا. وفي سخرية هذا التركيز الإعلامي الذي تشيع منه المخاوف من الإسلام، نجد أن وزير الداخلية شخصياً، نيكولا سركوزي[1]، يقدم رأياً مخالفاً للأحكام المسبقة والصور النمطية التي يحملها البرنامج الوثائقي ويرفض منطق الخلط بين الإسلام، والإسلاموية، والإرهاب. وإذا كان برنامج «تكملة

(١) الرئيس الفرنسي الحالي. (المترجمان).

بحث» يوم ٢٧ يناير ٢٠٠٣ يستحق تسجيله في حوليات وسائل الإعلام، فذلك لا يعود إلى أنه حدث إعلامي عن تصور الإسلام بقدر ما هو عبارة عن نموذج مثالي يوضح بجلاء ازدواجية ردود الأفعال لدى فرق التحرير ولدى المثقفين الإعلاميين تجاه موضوع «الإسلام».

وكنتيجة طبيعية لصناعة «الأبطال المسلمين» هذه، فهناك ميل إلى شيطنة بعض القادة. إذ إنه في إطار صراعهم الأيديولوجي ضد الانحرافات الخارجة من الإسلام، يلجأ المثقفون الإعلاميون إلى الاستخدام المكثف «للشخصنة» فيما يتعلق بلغة الخوف: «بلا شك، إن الإجماع يظهر بصورة واضحة عندما يتعلق الأمر بتناول «الشخصيات»»[1]. والشخصية الإسلامية التي يسلط عليها اليوم كل خطاب المثقفين الإعلاميين والخبراء الأمنيين هو دون أدنى شك طارق رمضان. فهذا الفيلسوف وعالم الدين، السويسري الجنسية، وحفيد حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، يقدم كثيراً كشخص ماهر في استغلال الجماهير وفي استخدام اللغة المزدوجة. بل يذهب البعض إلى اعتباره المسؤول الرئيس عن انتقال شباب الضواحي من الأصولية إلى الإرهاب الإسلامي[2]. على

(١) ف. أوبناس، (F. AUBENAS) م. بن الصايغ (M. BENASAYAG)، صناعة المعلومة (La F - brication de l›information)، مرجع سابق، ص. ١٤.

(٢) انظر آراء خبير الأمن أنطوان صفير (Antoine SFEIR) في (‹Lyon Mag›) أكتوبر ٢٠٠١.

هـذا الصعيـد، يتمحـور الهاجس المبطن من الإسـلام لدى بعض وسـائل الإعلام الفرنسـية حول شخصية محددة لينسـاب بعد ذلك إلى ما يمكن أن يكون «المخاوف من طارق رمضـان» (Ramadanophobie). وخلال بضعة أشـهر يتغير الخطاب عن شـخصية أي زعامة إسلامية، من خطاب دفاعي إلى نوع من الاسـتهزاء الذي يحط من قدر هذه الشـخصية. فمثلا تقـدم مجلة (L›Express)، في عددهـا الصادر بتاريخ ٦ ابريل ٢٠٠٠، الفيلسوف السويسري بصورة فيها ثناء كبير:

«طارق رمضان، فيلسوف ومتخصص في علوم الإسلام من جنيف. وهو أحد المثقفين المسـلمين الذين يرفضون بصورة قوية التقليدية ويبحث عن طريقة مختلفة لتناول الإسلام: إسلام قائم على القيم الإنسانية والكونية يجعلـه متوافقـاً مع مفهـوم المواطنة الفاعلـة. وهذا ما يتطلـب أكثر من الاندماج، أي التجذر الذي يغوص إلى أعماق خصوصية المواطنة. قد يقال إن الأمـر أعقـد من ذلـك... ولكن رمضـان على كل حـال مقتنع به إلى أقصى حد»[1].

وبعد بضعة أشهر، من هجمات الحادي عشر من سبتمبر، تغيرت صورة هذا القائد تماما في ذات المجلة المحافظة. ولم يعد طارق رمضان ذلك البطل

---

(١) دومينيـك سـيموني (Dominique SIMONET) لقـاء مع طـارق رمضان، مجلـة (L›Express)، ابريل، ٢٠٠٠.

المسلم المعاصر، وإنما رأس الحربة للأصوليين الجدد من المثقفين:

« طارق رمضان، ٤٠ عاما، هو الشخصية الرئيسة للأصوليين الجدد. فسبعة من كتبه موصى بها في أحد الملفات الموجودة في القرص المرن المزور لكارلا بروني [...]. جده حسن البنا هو مؤسس جماعة الإخوان المسلمين في مصر، والذي يتشبع اليوم اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا بأفكاره. كما أن والده سعيد رمضان أنشأ المركز الإسلامي في جنيف، وأخاه هاني رمضان يدير حالياً هذه المؤسسة المؤثرة. وقد قام- هذا الأخير- وهو من الإسلاميين المتشددين، بتبرير رجم المرأة الزانية على صفحات صحيفة (**Le Monde**)»[1].

بعيدا عن تبديد الأفكار المسبقة والصور النمطية عن الإسلام، لا يقدم كلام المثقفين الإعلاميين الجدد غير مزيد من التشويش على الأذهان والإبقاء على نظرة الشك تجاه بعض القادة المسلمين الذين لا يتبنون فكرة وضع الإسلام في الإطار «الأمني» الذي يسوقون له.

هل توجد في فرنسا «مخاوف ثقافية من الإسلام»، شبيهة بما يقال عن «المعاداة الثقافية للسامية» بين الحربين العالميتين؟ إذا كنا نعني بعبارة

---

(١) جان ماري أما (Jean-Marie AMAT)، إيف بنوا (Yves BENOIT)، «الإسلامويون الجدد. مرجعيتهم: طارق رمضان» (Néo-islamistes. Leur référence: Tariq Ramadan)، مجلة (L'Express)، ١٧ ابريل ٢٠٠٣.

«مخاوف ثقافية من الإسلام» إجراءات، وصيغا، وخطابات محددة مختلفة عن مظاهر المخاوف المعتادة من الإسلام، فإن الإجابة ربما تكون بالنفي. وعلى غرار وسائل الإعلام، يقوم الحراس الجدد للمعبد الجمهوري باستخدام واسع للنموذج الذي يصنعه الحس المشترك حول الإسلام والإسلاموية. إن أحكامهم المسبقة وصورهم النمطية تجاه الموضوع الإسلامي تغوص بجذورها في داخل التصورات التي يتشاركها المجتمع الفرنسي. وانطلاقاً من هذا، نستطيع التأكيد على أن مخاوف المثقفين الفرنسيين من الإسلام لا تحمل في طياتها أي شيء مما هو «ثقافي»: حيث إنها تقترن بذات الأشكال المبتذلة لمخاوف عامة الناس من الإسلام.

وفي المقابل، إذا كنا نعني «بالمخاوف الثقافية من الإسلام» المسؤولية الخاصة للمثقفين الفرنسيين في نشر وتبرير بعض الأحكام السلبية عن الإسلام، فإن الإجابة عن سؤالنا السابق ستكون بالإيجاب. فهنا يتموضع المثقفون الإعلاميون داخل التوجه الكلي المعادي للإسلام الذي ينتمي لأرنست رينان. ومن خلال موقعهم المسيطر في وسائل الإعلام، وأدوارهم المركزية في صناعة الرأي العام، ومن خلال علاقاتهم المتميزة مع بعض مؤسسات الجمهورية، يتحمل المثقفون الفرنسيون مسؤولية أخلاقية في نشر «المخاوف الجديدة من الإسلام» وسط الجماهير. والأمر لا يتعلق بعنصريتهم ضد الإسلام (وإن كان هذا موجوداً لدى قلة غير

ذات بال من المثقفين)، وإنما باتجاه منظم لخلط الأمور وباختزال التصورات عن الإسلام في مظاهر العنف. وعلى كل حال، فإن حجة ب.أ. تاجييف حول «مواقع الالتباس» في الإسلام[1] يمكن أيضاً استخدامها ضد المثقفين الإعلاميين. ألا يستسلمون بسهولة هم أنفسهم لشكل من أشكال الالتباس عندما يوحون بأن المسلمين المحافظين هم إرهابيون محتملون؟ إن معركتهم المضادة للإسلام- ومهما كانت مشروعيتها- تقود العديد منهم إلى أن يربطوا كل أوجه التعبير عن الالتزام الديني وعن السلوك المحافظ بالظلامية، بل بالإرهاب الإسلامي. إن الإسلام الذي يتحدث عنه المثقفون الإعلاميون إذن ليس هو إسلام الآلاف من المسلمين العاديين الذين يعيشون بهدوء على أراضينا، وإنما «إسلام متخيل». إسلام تنتجه نظرتهم التحذيرية والتدميرية لمستقبل مجتمعنا. على هذا الصعيد، فإن المثقفين الإعلاميين لم يأتوا بشيء جديد: إنهم لا يفعلون أكثر من إعادة إنتاج، ومن ثم تبني الخطاب الأمني «لخبراء الخوف الجدد»، الذين اكتسبوا، منذ الحادي عشر من سبتمبر، شهرة واسعة على الصعيد العام.

(١) ب.أ. تاجييف (P.-A. TAGUIEFF)، المخاوف الجديدة من اليهودية (La Nouvelle Judéophobie)، منشورات (Mille et Une Nuits)، باريس، ٢٠٠٢، ص. ١٦٠

الباب الثاني

خبراء الخوف الجدد

«والآن إلى ما يمثله جوهر التقرير الجديد للخبراء والذي شغل حيزاً واسعاً في وسائل الإعلام: أيديولوجية سيئة المذاق ولكنها سلعة رائجة.»

رولان موشيلي (Laurent Muchielli)

العنف وتهديد الأمن (Violences et insécurité)

منشورات (La Découverte)، باريس، ٢٠٠١

منذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ رأينا تزايد الدعوات للظهور على منصات التلفزة وفي الحلقات الإذاعية من كل نوع. وفيها رأينا فئة جديدة من المتحدثين «خبراء في الخوف أو الفزع» ممن يستمدون مشروعية وجودهم من الواقعية الأمنية التي تتصدى لانعدام الرؤيا وغياب الإدراك لدى الباحثين. وبتهميشهم لأقوال المتخصصين في الشؤون الإسلامية والاجتماعية والسياسية، فإن هؤلاء المختصين في الجيوبوليتيك قد نجحوا في آن واحد أن يفرضوا أنفسهم مرجعية بارزة فيما يخص الإسلام والحركات الإسلامية، وأن يوظفوا- بقدرات عالية- الغموض الذي يكتنف تحديد مواقفهم الواقعة في منتصف المسافة بين المستشارين السياسيين والباحثين العلميين. والأخطر من هذا أنهم قد نالوا، في بعض الأحيان، مساندة غير متوقعة من بعض الباحثين وأساتذة الجامعات مثل م. تريبالا، و ب.أ. تاجييف، و س. تريجانو (S. Trigano)، وغيرهم ممن يديرون ظهورهم لأخلاقيات المهنة المتعلقة بطرق استقصاء وتفسير

المعطيات باسم الاستنكار العام لمخاطر الأصولية الإسلامية.

إنهم بهذا يظهرون في شكل من التواطؤ مثير للقلق يصل- باسم المعركة العامة ضد الحركات الإسلامية السياسية وضد الوجه الجديد للمخاوف من اليهود (La Nouvelle judéophobie)- إلى منح جواز المرور لكتّاب قليلاً ما يتوخون الدقة في منابع ومصادر معلوماتهم. وهذا الخليط بين أصناف شتى (تقارير خبراء، ومصادر المعلومات والبحث العلمي الذي يتحلى بالعلمية، وبواقعية الخبراء، يساهم بلا شك في ترقية الوجه الجديد للمخاوف من الإسلام والنظرة إليه بوصفه أمرا عاديا، ومن ثم يساهم في نشر أيديولوجية الشك والشبهات)

وجه جديد للمخاوف من الإسلام يصوغه الخبراء الأمنيون

إن الحال التي يمثلها دل فال[١]، والتي ترسم القطيعة البائنة مع المخاوف من الإسلام على الطريقة الأبوية بأسلوب الاستعمار الحديث، هي أوضح إشارةٍ إلى هذا الجيل الجديد من الخبراء الأمنيين. فألكسندر دلفال، الذي اسمه حقيقة هو مارك دانا (Marc d›Anna) والذي ينتمي للدوائر الغامضة لليمين الملحد «الجديد»، قد استطاع الآن أن يبني لنفسه شهرة حقيقية في الحقل الإعلامي، بل لدى القيادات السياسية والحزبية[٢]. والواقع، أن مسار الحياة الخاصة لدل فال ليس مهماً لدراستنا إلا عند وضعه في سياق أوسع وأعم: خلال الخمسة عشر عاما الأخيرة حدث تبسيط للقراءات الكارهة للغرباء في المجتمع الفرنسي، واتسع انتشارها في وسط الإعلام، وبشكل لم يكن متوقعا في الأوساط البحثية.

عندما نشر دل فال أول كتبه «الحركات الإسلامية السياسية والولايات المتحدة- تحالف ضد أوروبا»[٣] في العام ١٩٩٧، كان حتى ذلك الحين كاتباً مجهولا تماما لدى وسائل الإعلام والجمهور: وقد دافع في كتابه

---

(١) فاتحه كاوس (Fatiha KAOUES)، «الحالة دل فال» (Le cas Del Valle)، مجلة (Arabe - ques)، ٢٤ يونيه ٢٠٠٢ (www. arabesques. org)، من أجل بيوغرافيا مفصلة، ارجع لرينيه منزات (René MONZAT)، «المسار المذهل لالكسندر دل فال» (L›étonnant parcours d›Alexandre Del Valle)، مجلة (Ras l›front)، عدد ٨٧، ٢٠٠٢، ص.١٠-١١.

(٢) كان دل فال مرشحا في قائمة رشيد كاسي من أجل قيادة حزب التجمع من أجل حركة شعبية (UMP) حين انعقاد المؤتمر التأسيسي في بورجيه (Bourget)، نوفمبر ٢٠٠٢.

(٣) منشورات (L›Age d›Homme)، لوزان، ١٩٩٧.

عن الفرضية التي تقول بتواطؤ يقوم على المصالح يجمع بين أمريكا والتنظيمات الإسلامية العالمية بهدف القضاء على الأمم الأوروبية. وهذا «الحلف الجديد» قد لا يستند فقط على المصالح ذات الطبيعة الاستراتيجية (الحرب على أوروبا) وإنما يمكن أن يكون قائماً على تلاق عقائدي بين البروتستانتية «White Anglo-Saxon Protestant - WASP» والحركات الإسلامية السياسية، وهما أيديولوجيتان أصوليتان تعارضان تماماً الانتماء القومي:

«إن كلاً من الحضارتين الإسلامية والأمريكية المتزمتة قد تأسست على الاستئصال التام للثقافات التي سبقتها بعدة آلاف من السنين. وهذا الاستئصال يبرره مبدأ مكنون في «كتاب» يعتبر كلاً شاملا: القرآن بالنسبة «لجند الله» الجدد، والكتاب المقدس بالنسبة للبروتستانتيين (WASP) الذين يتحكمون باستمرار في المجتمع الأمريكي الحديث [...]. فمن وجهة النظر التاريخية نميل كثيراً لتناسي أن الحضارتين الإسلامية والأمريكية المتزمتة قد تأكد أنهما «مضادتان» لأوروبا، وأن كلاً منهما قد حاولت بطريقتها الخاصة أن تستأصل الإرث المتعلق بهوية شعوب القارة العجوز»[1].

إن مخاوف دل فال من الإسلام تتوافق بصورة طبيعية مع المخاوف التي تنبع من أعماقه تجاه أمريكا، والتي يبدو أن انتشارها بشكل كاريكاتوري كان ينبغي أن يحكم بوضعه نهائياً على الهامش إعلاميا وعلى مستوى

(١) المرجع السابق، ص. ٢٧٥

النشـر. ولكـن منـذ العـام ١٩٩٧ نلاحـظ تقاربا بـين الكاتـب دل فال وأوساط الخبراء العسـكريين ذوي التوجهات السيادية والذين يشاركونه كراهية أمريكا وازدراء الإسـلام، والميل نحـو التعاطف مع الصرب. وقد أعد دل فال بنفسـه أطروحة جامعية عن اسـتراتيجية الدفاع؛ مما أتاح له الوجود إلى جانب الكثير من المختصين والخبراء في المسـائل العسـكرية: «فـلا نندهـش مـن أن يعكس عمـل دانـا [...] فرضيات سـارية داخل «إدارة» الاسـتخبارات العسـكرية فيمـا يتعلـق بـدور الولايـات المتحدة ومسـاندتها الحـركات الإسـلامية السياسـية... إلـخ».[1] ونضيف أن إصدارات «L›Age d›Homme» التي ينشر فيها هؤلاء المؤلفون مقالاتهم المتعلقة بالجيوبوليتيك يديرها الصربي فلادمير ديمتريجفيك (Vladmir Dimitrijevic) وأن هذه الدار تتخذ من لوزان بسويسرا مقراً لها وأن لها أيضا قناة في صربيا.

إن هـذه الـدار هي ذاتها التي نشـرت فـي العـام ١٩٩٩ ترجمة كتاب ابن الوراق (اسـم مسـتعار) «لماذا أنا لستُ مسـلماً» (pourquoi je ne suis pas musulman) والذي يشـرح فيـه المؤلف الأمريكي ذو الأصول الهندو- باكستانية أسباب رفضه القاطع لدين أهله. وهذا الرفض للإسلام ما كان ليشـكل في حد ذاته صدمة لأحد لولا أنه تحول بدقة إلى مؤسسـة تعبر عن المخاوف من الإسلام وتخدم الأوساط الأمنية:

«ولدت في أسـرة مسـلمة وترعرعت في بلد يفخر الآن بأنه جمهورية

(١) رينيـه منـزات (René MONZAT) «المسـار المذهل لدل فـال» (L›étonnant parcours de Del Valle)، مراجع سابق، ص.١١.

مسلمة. أقاربي ينتمون للإسلام: بعضهم يتمسكون تماماً بعقيدتهم والبعض الآخر بدرجة أقل [...]. وبمجرد بلوغي سن إعمال العقل دون تدخل من أحد، رفضت كل المعتقدات الدينية التي كانوا قد أجبروني على تجرعها سابقاً. واليوم أعتبر نفسي علمانيا إنسانويا، يعتقد أن كل الأديان هي مجرد أحلام أناس أغبياء، وبكل تأكيد كلها خاطئة وضارة [...]، هكذا كنت وكان رأيي، وكان سيبقى الحال عليه، لولا حدوث قضية سلمان رشدي، وصعود الإسلام. فشخصي الذي لم يسطر كتاباً من قبل تحمس نتيجة هذه الأحداث لدرجة دفعتني دفعا نحو الكتابة [...]. و «هذا الكتاب هو جهدي في المعركة»[1]. إذ في كل مرة كنت أتأنى فيها حذراً وأنا أكتب، كانت الاغتيالات الجديدة التي تتم باسم الله، وباسم الإسلام تحثني على إكماله»[2].

ومن بين الكتاب المعجبين جداً بالإصدارات التي تتميز بالتعاطف مع الصربيين، هناك الجنرال بيير ماري غالوا (Pierre-Marie Gallois) الذي قدم للكتاب الأول لدل فال[3]. وكان هذا الجنرال الفرنسي قد نشر هو نفسه، قبل عامين، كتاباً طابعه النبرة التي تحمل المخاوف من الإسلام تحت عنوان «شمس الله تصيب الغرب بالعمى» (Le Soleil d›Allah aveugle l›Occident)[4] وفيه يدعو الأمم الأوروبية لمواجهة الخطر

(١) نحن الذين نشير لهذا. (المؤلف).

(٢) التقديم، المرجع السابق. ص. ١٠.

(٣) تقديم كتاب «الإسلاموية والولايات المتحدة. تحالف ضد أوروبا» (Islamisme et Etats-Unis. Une alliance contre l›Europe)، مرجع سابق. ص. ٧-١٢.

(٤) واضح من العنوان أن الكاتب يعارض كتاب المستشرقة الألمانية سيجريد هونكه (Sigrid HUNKE)

الإسلاموي. وموقفه هذا كان قد قاده لأن يساند نظام صدام حسين وقتها بوصفه حصناً يحمي منطقة الخليج من الإسلاموية. ونرى هنا أن حب العرب «على الطريقة الفرنسية» (الحلم بتجديد سياسة عربية كبيرة)، ذلك الحلم العزيز لدى بعض من يحنون للديغولية[1]، يمكن أن يتآلف مع الخطاب المشبع بالمخاوف من الإسلام.

في العام ٢٠٠٢ أصدر الناشر الذي طبع العمل الأول لدل فال في السلسلة السياسية «بواعث جيوبوليتيكيه» (mobiles géopolitique) كتاباً لا يحتوي فقط على مخاوف مبطنة من الإسلام، وإنما مخاوف تأخذ طابعا عدوانياً، وكان عنوانه: «فرنسا في خطر من الإسلام» (La France en danger d›islam). فمؤلف هذا الكتاب، رينيه مارشاند (René Marchand) يدعو لحل جذري لما يسميه «المسألة الإسلامية»: ويرى طرد كل المسلمين لبلدانهم الأصلية:

«إن ما لا يعقله الكثيرون الآن هو إعادة المسلمين المقيمين في فرنسا ويرفضون «الفرنسة» إلى بلدانهم الإسلامية. وأنا أقولها في هدوء: هذه الإعادة ستحدث، أو سوف لن يكونَ هناك وجود لفرنسا. وحتى لو أن

الذي كتبه في الستينيات و تمت ترجمته إلى أكثر من لغة ومنها الفرنسية التي كان تحت عنوان «شمس الله تسطع على الغرب» (Le Soleil d›Allah Brille sur l›Occident). ونشير إلى أن النسخة الألمانية كانت تحمل مفردة الله أيضاً، في حين أن النسخة العربية حملت عنوان شمس العرب تسطع على الغرب. وهذا تصرف نعتقد أنه في غير محله حيث إن الكتاب يحمل فكرة أساسية تتعلق بتأثير الإسلام في الذهنية العربية لذلك نجده مليئاً بالتحليلات التي تحيل إلى مفكرين وعلماء مسلمين غير عرب. فهل تأثر المترجم بالسياق القومي العربي في الستينيات عندما ظهر الكتاب؟ سؤال قد يحتاج إلى بحث وتحليل. (المترجمان).

(١) ب.م. غالوا (P.M Gallois) هو أحد آباء سياسة الردع النووي وقد شغل مواقع هامة في عهد الجنرال ديغول.

هذه العودة (alya)[1] الإسلامية لا يمكن حدوثها، فإنه من الضروري بل من الواجب الإعداد لها. فالاستراتيجيات تعني مما تعني علم الإعداد لما لا يعقل حدوثه».[2]

والأكثر إثارة للدهشة هو الدعم المبكر الذي لقيه دل فال من بعض الأوساط الإعلامية: فقد ذيل جان بيير بيرونسل هوغوز (Jean-Pierre Péroncel-Hugoz)، أحد صحفيي صحيفة (Le Monde) لكتابه الأول[3]. وهو مراسل سابق للصحيفة في الجزائر والقاهرة، ومسؤول عن باب «الفرنكفونية» من عام ١٩٨٢ إلى عام ١٩٩٧، ويشارك دل فال ذات المشاعر الرافضة لأمريكا التوسعية، ويقاسمه بشكل خاص هاجس أسلمة الكون. ويرجع إلى هذا الصحفي استخدام مصطلح «إسلامريكي» (islamérique)، والذي يعني التركيز على التقاء شكلين من أشكال التوسعية العالمية (الهيمنة الأمريكية والجهادية الإسلامية):

«تكمن نقاط ضعف النظام الحالي في تطلعاته العالمية، لذا يجب عدم التهاون في كشف هذه النقاط. ومع بعض التحفظات، فإننا نعلم جميعا أن الشرفاء لا يدافعون فقط عن قضايا خاسرة... ففرنسا، على سبيل

(١) العودة (alya) تشير لعودة بني إسرائيل لأرض الميعاد كما هو في الديانة اليهودية. ونرى هنا تخيلات الكاتب التي تمزج بين المخاوف من الإسلام والمخاوف من اليهودية.

(٢) رينيه مارشاند (René Marchand)، فرنسا في خطر من الإسلام. بين الجهاد واستعادة أوروبا المسيحية (France en danger d›islam. Entre Jihâd et Reconquista)، لوزان، منشورات (L›Age d›Homme)، سلسلة (Mobiles géopolitiques). ٢٠٠٢.

(٣) تذييل كتاب «الإسلاموية والولايات المتحدة الأمريكية. تحالف ضد أوروبا» (Islamisme et Etats-Unis. Une alliance contre l›Europe)، ص. ٣٢١٦٣٢٤.

المثـال، لا تريد أن تكون يانكية (yanquie) أو إسـلامية أو حتى خليطاً مـن الاثنين. فهمـا منافيـان للنموذج الحضاري وأسـلوب الحيـاة اللذين ابتدعتهما»[1].

والمعركـة الأخرى التي يخوضها الكاتبان معاً هي الدفاع باسـتماتة عن مصير الأقليات المسـيحية في العام العربـي (المارونيين في لبنان، الأقباط في مصـر...)، والذين يقدمـون على أنهم جماعـات مضطهدة من قبل الأغلبية المسلمة[2]:

«إن العالم المسيحي، ما عدا قلة استثنائية، لم يهتم في أي وقت بمصير المسيحية في لبنان التي تجابه منفردة قوة سورية أو إسرائيلية، وتكافح من أجل كل منزل وكل شجرة وكل صخرة»[3].

فـي العـام ١٩٨٣، وقبـل التحليل الكارثـي الذي سـاقه دل فال، كان ج.ب. بيرنسـل هوغـوز قد أكد في «طوق نجـاة محمد» (Le radeau de Mahomet) وبنبـرة تحذيرية أن «اختلال التوازن السـكاني الذي يجري في منطقة البحر الأبيض المتوسـط لصالح الضفة الجنوبية [...] سيعجل

(١) المرجع السابق، ص. ٣٢٢.

(٢) ناقـش دل فـال أطروحته للحصول على دبلـوم (IEP) من جامعة إكـس إن بروفنس (Aix-en-Pr - vence) وكان موضوعهـا «المارونيـة السياسـية» (La Maronité politique) وتبنـى الموضوعـات التـي تطرحها الأوسـاط المسـيحية اللبنانيـة المتطرفة. المصدر: ر. منـزات (R. Monzat) «المسـار المذهل لدل فال» (Lyétonnant parcours de Del Valle)، مرجع سابق. ص. ١١.

(٣) ج.ب. بيرونسـل هوغـوز (J.-P. PERONCEL-HUGOZ)، «طـوق نجاة محمد» (Le Radeau de Mahomet)، باريس، منشورات (Lieu Commun)، ١٩٨٣، ص. ١٢٠-١٢١.

فرضية عودة الإسلام بقوة لأوروبا في القرن القادم [...]»[١].

وعليه فعندما نشر دل فال كتابه الثاني في عام ٢٠٠٢ «الشمولية الإسلاموية تهاجم الديموقراطيات»[٢]، فإنه كان خبيراً معترفاً به يحظى بدعم عدد من مطابخ المؤامرات الأمنية (الاستخبارات العامة و إدارة الأمن الوطني و الإدارة العامة للأمن الخارجي DGSE)(٣) ومن بعض وسائل الإعلام المتعطشة للإثارة. وتشكل هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ بالنسبة للمؤلف الشاب فرصة هبطت عليه من السماء، دفعته من الأوساط غير المرئية لليمين «الجديد»، ومن دار نشر (L›Age d›Homme) الموالية للصرب، إلى واجهة المشهد الإعلامي: فخلال بضعة شهور تمت دعوته لعشرات البرامج التلفزيونية والإذاعية وخاصة في قناة (LCI)، والأهم كانت دعوته على القناة الرسمية (France ٥) حيث اشترك ست مرات في البرنامج الذي يعده إيف كالفي (Yves Calvi) تحت عنوان «على الهواء» (C›est dans l›air) مساهماً بذلك في إشاعة أطروحاته عن المخاوف من الإسلام بين الجمهور العريض.[٤]

(١) المرجع السابق. ص. ٤٦.

(٢) باريس، منشورات (Syrtes)، ٢٠٠٢.

(٣) جهات يحرص دل فال على شكرها في مقدمة أعماله «أشكر [...] وكذلك الضباط والمراقبين الفرنسيين والأجانب الآخرين الذين كان لنصائحهم فائدة كبيرة ولكن لا يمكن ذكرهم هنا بسبب حساسية أنشطتهم»، الإسلاموية والولايات المتحدة. تحالف ضد أوروبا، مرجع سابق. ص ١.

(٤) تمت دعوته لبرنامج «على الهواء»، في ١٨ أبريل، ١٠ مايو، ١٧ أكتوبر، و١٣ نوفمبر ٢٠٠٢، و١٢ فبراير و٥ مارس ٢٠٠٣. وعلى ذات القناة الخامسة، تمت استضافته يوم ٧ أكتوبر ٢٠٠١، في برنامج سيرج مواتي (Serge Moati) «ردود سريعة» (Ripostes).

ولـم تتغيـر تحليلات دل فال كثيراً بعد الحادي عشـر من سـبتمبر: إنه يوسـع فيها ذات الأفكار التي ينسجها خياله عن الانتصارات التي تحققها التنظيمات الإسـلامية في العالم، ويضفي عليها هالة من التضخيم: وقد اختفـى تقريبا عداؤه لأمريكا، وفرضيته الأساسـية عـن «المؤامرة العالمية التـي تجمع الإسـلامويين والأمريكيـين» ضد أوروبا الموحدة أسـدل عليها السـتار تماماً. وثمة تحول مهم آخر لدى خبير الجيوبوليتيك: إن إسرائيل التي كان في كتاباته الأولى يعتبرها «تابعا لأمريكا» في منطقتها، صارت عنده من الآن فصاعداً الضحية الأولى «للإرهاب الإسلامي». فهو بهذا قد تطهر عن كل شـك قد يصوب نحوه سـهام معاداة السامية والصهيونية، وأخذ يكسـب شـهرة جديـدة داخل بعض الأوسـاط الموالية لإسـرائيل، وأوسـاط اليهود الراديكاليين[1]، مما جعله ينشر خطابه المتعلق بالمخاوف مـن الإسـلام على نطاق واسـع، وتحت غطـاء الخبرة «العلميـة»[2]: وقد أجرت معه مجلة (Israël Magazine) مقابلة قدمته فيها بصفته مختصا في الشأن الإسلامي. وهنا يلاحظ أن خبير الجيوبوليتيك يلعب باستمرار علـى غموض مواقفـه، ويعتـز بألقابه، ووظائفـه الجامعيـة أو الأكاديمية المتعددة التي من الصعب التحقق من قيمتها الفعلية.

ومـع كل فـإن الأهميـة الإعلامية المكتسـبة حديثـاً لدل فـال لا يمكن

(١) بعد الحادي عشـر من سـبتمبر ٢٠٠١، أصبحت معظم مقالات وموضوعات دل فال تنتشـر كثيراً على المواقع الموالية لإسـرائيل على الإنترنت: www.aipj.net، infowww.antisemitisme. (في الحقيقة موقع مـوال لإسـرائيل)، www.objectif-info.com، www.revue-politique.com، www._proche-orient.info، www.reinfo-israel.com، وغيرها من المواقع.

(٢) مذكور في رينيه مونزات (R. Monzat)، «المسار المذهل لدل فال»، مقال سابق. ص. ١٠.

تفسـيرها ببساطة كاسـتراتيجية فردية قد بلغت غايتها أو «قد نجحت»: اسـتراتيجية كاتب قد عرف بمهارة أن يبدل في شـهور قلائل مخاوفه من الحـركات الإسـلامية السياسـية ومن أمريـكا إلى خبرات أمنيـة أعطتها أحداث الحادي عشـر من سـبتمبر المأسـاوية «المصداقية اللازمة». فنجاح أطروحاتـه يديـن أيضـا بالكثير للتطـورات العامة التي أثـرت في خبراء الإعلام، وكذا بعض أوسـاط البحث العلمي. فإن ما كان قبل بضع سـنين فقط يبدو انبعاثا للأفكار الهامشـية المعادية للأجانب، والتي تنحصر في أحزاب اليمين المتطرف، وفي دوائر مثقفي اليمين «الجديد»، كما تنحصر فـي بعـض قطاعـات مهنيـة بعينهـا (الخبـراء العسـكريين واختصاصي الاسـتخبارات...)، اكتسب حاليا ترويجاً واسـعاً، بل قيمة عامة مهمة تمارس في شكل «واجب اجتماعي»: فكل مثقف فرنسي أو شخصية عامة، أو مفكر إعلامي، عليه أن يتبنى خطاباً «مسؤولاً» تجاه الإسلام والمسلمين، حتـى لا يتهمه رصفاؤه بالانحياز للمسـلمين أو بالمثالية المفرطة. وهذا ما تعنيه المحاسـبة غير المبـررة التي يتعرض لها الفرنسـيون المتخصصون في دراسـات الإسـلام (ب. إتيان، ج. سـيزاري، ج. كيبيـل، و. روي)[1] والمتهمـون بأنهـم قد توقعوا غير مـا ينبغي من الحيطة والحذر بالسـقوط الذاتي للإسـلام السياسي[2]. وهذا الخطأ في استشراف المستقبل ربما قاد

(١) نضع أسماءهم باللغة الفرنسية هنا زيادة في التوضيح. (O. Roy، G. Kepel، J. Césari، B. Etienne). (المترجمان).

(٢) فرنسـوا دوفاي (François DUFAY)، «التنبؤ الخاطئ لإختصاصي دراسـات الإسـلام» (La fausse prophétie des islamologues)، مجلة (Le Point)، عدد ١٥١٦، ٥ أكتوبر، ٢٠٠١.

السلطات الغربية إلى «التراخي» في الرقابة الموجهة نحو التهديد الذي يشكله الإرهاب الإسلامي، حسب ادعاء الجنرال ج.ج. سالفان (J.-G. Salvan) القائد السابق للمنطقة العسكرية الرابعة وعضو حزب «اليمين المتطرف» المركز الوطني للمستقلين (CNI):

«إن خيانة الدوائر الأوروبية معروفة منذ أمد بعيد، ومختصو دراسة الإسلام عندنا يبدون إجلالا مدهشا للمملكة العربية السعودية والجزائر، يصل حد إدانتهم. فمن تفهم الأمور الذي أراده ل. ماسينيون (L. Massignon)، و م. وات (M. Watt)، و فاتيكان الثاني (Vatican II)، انتقلنا إلى المدح والتمجيد».[1]

وهذه الآراء القائلة بتساهل المختصين في دراسات الإسلام من الغربيين تجاه «الخطر الإسلاموي» تلقى كذلك «السند العرقي» من ابن الوراق:

«بكل أسف، قد أصبح بعض من يدعون أنهم خبراء في الجامعات الغربية ووسائل الإعلام، والكنائس ومجالس الوزراء يمجدون الإسلام. فهؤلاء قد خلقوا بهذا، وعلى طريقتهم، «بيئة للإرهاب الفكري» – وقد أوضحنا ذلك– بحيث إن أي نقد يوجه للإسلام يدمغ بأنه عمل فاشستي وعنصري. وهؤلاء الخبراء المزعومون قد قاموا بتخدير الرأي العام وبجعله يصدق أن التهديد بالخطر الإسلامي هو ضرب من الأساطير. وعليه فلتهب المقاومة! ولنكف عن دفن رؤوسنا في رمال جزيرة العرب!».[2]

---

(١) الجنرال ج.ج. سالفان (J. -G. SALVAN)، مقدمة كتاب ابن وراق (Ibn WARRAQ)، لماذا أنا لستُ مسلما؟، (pourquoi je ne suis pas musulman)، مرجع سابق، ص. ١٦.

(٢) ابن وراق (Ibn WARRAQ)، «أيديولوجية شمولية» (Une idéologie totalitaire)، مجلة (Marianne)، صفحة (Forum)، عدد ٢٣١، من ٢٤ إلى ٣٠ سبتمبر ٢٠٠١.

فيما يتعلق بوضعية العلماء داخل الحقل الإعلامي والحيز الرسمي، فإننا نشهد انقلاباً حقيقياً في الأمر: فبعد أن كان المختصون بدراسات الإسلام والعلوم السياسية الفرنسيون يعتبرون مساهمين في إضفاء الشرعية على الخطاب العاطفي الانفعالي تجاه العالم العربي - الإسلامي، وتجاه مسلمي فرنسا[1]، صار هؤلاء الباحثون الجامعيون من الآن فصاعداً موضع اتهام بالتعاطف مع التنظيمات الإسلامية، أو غض الطرف عنها. وبذا تكون النتيجة الأهم لإشاعة الأطروحات المتعلقة بالمخاوف من الإسلام، والتي طورها خبراء الجيوبوليتيك المرتبطون باليمين المتطرف، هي المساهمة في نشر إطار معياري للحكم على الإسلام (طريقة للقراءة الأيديولوجية) لا يمكن أحياناً الإفلات منه إلا بالتزام الصمت والإعراض عن وسائل الإعلام؛ مما نشأ منه حال غير مسبوقة فيما يتعلق بالتحدث فيما يتعلق بالإسلام: كما ساهمت أحداث الحادي عشر من سبتمبر بشكل أكبر في تهميش التفكير العميق والرشيد لصالح التفكير العام والسطحي الذي تحمله فئة من الخبراء تتسم مسيرتهم المهنية والعلمية أحياناً بأنها بعيدة جداً عن حقل الدراسات التي تتناول الإسلام.

(١) صادق رباح (Saddek RABAH)، الإسلام في الخطاب الإعلامي. كيف تتصور وسائل الإعلام في فرنسا الإسلام؟ (L›Islam dans le discours médiatique. Comment les médias se repr-sentent l›islam en France?)، مرجع سابق.؛ جان روبير هنري (Jean-Robert Henry)، فرانك فريجوسي (Franck FREGOSI)، «وسائل الإعلام الشيطانية» (Les médias sataniques)، مقال سابق، ص. ٨٦-٨٧.

انتقام متخصصي الجيوبوليتيك من متخصصي دراسات الإسلام المتهمين بمحاباة المسلمين عبر وسائل الإعلام

هـذا التهميش للتفكير الرشـيد في الحالة الإسـلامية يقـود منطقياً إلى التضخيـم الإعلامي للخبـراء الأمنيـين ومتخصصـي الجيوبوليتيك الذين يجدون أنفسهم قد ترقوا الدرجة اختصاصيين في الدين الإسلامي، والأصولية والإرهاب الإسـلامي. وبما أن هـؤلاء الخبراء الجدد في «الخـوف» ليس لهم بصفة عامة إلا صلات ضعيفة بالمواقع المحلية والأجنبية، فإنهم يكتفون بأن يصرخوا في وسائل الإعلام بكل صورة سلبية وأفكار مسبقة حول الإسلام والإسـلاموية. ويضاف لهذا أنه للمحظوظين منهم مداخل خاصة للمصادر البوليسـية والعسـكرية التي تضفي على خبرتهم مظهر «السـري الموثوق به». فمن بين هؤلاء الخبراء الجدد في الإسلام والإرهاب الإسلامي يمكن ذكر أنطوان صفير، رئيـس تحرير مجلة (Cahiers de l›Orient)[1]، وأنطوان بسبوس مدير مرصد البلاد العربية، (Observateur des pays arabes)، وفريدريك إنسل المتخصص في الجيوبوليتيك، والذين ينشرون- بالتأكيد- تحليـلات فيهـا صراحة تقل كثيرا عن تلك التي نجدها عند دل فال وآخرين من كتاب دار نشر (l›Age d›Homme)، لكنهم مع ذلك ينقلون لقرائهم

(١) وله مؤلفات أخرى منها «الشـبكات الإسـلاموية في فرنسـا وفي أوروبا، السديم (- Les Filières isl mistes en France et en Europe, La nébuleuse)، دار نشـر (Plon)، باريـس، ١٩٩٧ و لـه أيضـا القامـوس العالمي للإسـلاموية (Dictionnaire mondial de l›islamisme)، دار نشـر (Plon)، باريس، ٢٠٠٣.

بعـض الأفـكار والأحكام المسـبقة عـن الشـباب الفرنسـيين ذوي الثقافة الإسلامية وعن بعض المنظمات الإسـلامية مثل (اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسـا، و الفيدرالية الوطنية لمسـلمي فرنسـا، وجماعة التبليغ...)، التي تتهم بأنها تمهد الطريق للإرهاب الإسلامي في الضواحي الشعبية[1].

ومسـيرة ف. إنسـل توضح بجلاء وبشـكل خاص تلك المسـاحة الغامضة التـي توجد دوما بين البحث العلمي والخبرة الإعلامية. فهو يحمل شـهادة الدكتـوراه في الجيوبوليتيك مـن جامعة باريس الثامنة[2] ولا ينتمي لليمين المتطرف أو اليمين السيادي، ولكنه ينضوي تحت التيار اليساري الجمهوري على أثر «أسـتاذه» إيف لاكوسـت (Yves Lacoste) الذي ارتبط اسمه في السـنوات الأخيرة بشـجب أضرار الإسـلام السياسـي في العالم العربي، وخطورة العدوى المنتقلة منه لداخل المجتمع الفرنسي. وخط السير الفكري للاكوسـت وبعض من يتولون إدارة دفة المجلة المتخصصة في الجيوبوليتيك (Hérodote) - الإصـدارة الجامعية ذات المظهر التحريري المرموق - يمثل تحديداً التيار الإنسـانوي (humaniste) القديم المهتم بالعالم الثالث، غير أنه بمجرد أن تحول لتناول قضايا الإسـلام والأصولية الإسـلامية، فإنه صار

---

(١) فردريـك إنسـل (Frédéric ENCEL)، جيوبوليتيـك الكارثـة، الديمقراطيـة علـى المحك في وجه الإسـلاموية (Géopolitique de l›apocalypse. La démocratie à l›épreuve de l›islamisme)، منشورات (Flammarion)، باريس، ٢٠٠٢.

(٢) ف. إنسل (F. ENCEL) هو أيضا مؤلف كتاب جيوبوليتيك القدس (Géopolitique de Jérusalem)، منشـورات (Flammarion)، باريس، ٢٠٠٠، وكتاب الشرق الأوسط بين السلام والحرب. جيوبوليتيـك الجـولان (Le Moyen-Orien entre paix et guerre. Une géopolitique du Golan)، منشـورات (Flammarion)، باريـس، ٢٠٠١. وكتاب فن الحرب عبر المثال (L›Art de la guerre par l›exemple)، منشورات (Flammarion)، باريس، ٢٠٠٢.

يتبنى آراء قطعية، ساقطاً أحياناً في المبالغة. ومنذ العام ١٩٩٦ تناول أبو الجيوبوليتيك الفرنسية (لاكوست) موضوع تكوين «الجيتو الإسلامية» في ضواحينا داخل فرنسا القارية (l،hexagone) والتي يمكن أن يستفيد منها الإسلامويين في خلخلة الأمة كلها:

«يبذل الناشطون الإسلامويون جهداً كبيراً لأسلمة بعض أحياء الضواحي، وذلك بسعيهم لتوحيد وتنظيم المسلمين الموجودين فيها، والذين ينتمون لعدة جنسيات، باسم الإسلام. ويجتهدون في إقناعهم، كما يعملون بجد لدفع من يقاومونهم نحو الذهاب للعيش في أماكن أخرى. وقد تنجح هذه الاستراتيجية في خلق «جيتوهات» حقيقية تتجانس مع بعضها تحت رعاية الديانة المشتركة وتشبه باختصار «الجيتوهات» اليهودية المعروفة في الماضي، ولا تختلف عنها إلا في كونها أحياء مسلمة [...]. وفي معمعة كهذه يمكن أن تنفجر بشكل فجائي نوعاً ما، وفي آن واحد، اضطرابات خطيرة في الأحياء التي يصبح المسلمون فيها أغلبية وقادة لحركات قادرة على حشد عشرات الآلاف من الأشخاص في مناطق الضواحي حيث المجمعات السكنية الكبيرة، وكذلك في وسط المدن كما هو الحال في مدينة مرسيليا»[١].

واستنادا على هذا «المنطق الجيوبوليتيكي» يواصل ف. إنسل الآن تناول التصوير الخيالي للضواحي الفرنسية متخذاً موقفاً وسطاً بين التحليل العلمي وتقارير الخبراء الأمنيين:

---

(١) إيف لاكوست (Yves LACOSTE)، «مخاطر جيوبوليتيكية في فرنسا» (Périles géoplotiques en France)، مجلة (Hérodote)، الفصل الأول من ١٩٩٦، ص. ١٤-١٦.

«إن فرنسا بحكم موقعها الجغرافي وتركيبتها الاجتماعية تجد نفسها في الصف الأول لمن يقودون المعركة ضد الإسلاموية. فعدة ملايين من المواطنين المسلمين - غالبيتهم من أصل عربي - يشكلون أهدافاً مهمة للدعاية المحلية أو الواردة من الخارج، والتي هي بلا شك أنشط. وحقيقة أن العشرات من الفرنسيين المسلمين قد التحقوا بشبكات القاعدة في السنوات الأخيرة - بعضهم في التنظيم الأفغاني - تؤسس لمثل هذه الدعاية».[1]

وبوجه عام يمكن التساؤل عن القواعد الأيديولوجية التي يستند عليها هذا «التخصص الجامعي» المسمى الجيوبوليتيك[2]، المنحدر من الجغرافيا الكلاسيكية - يعتبر إيف لاكوست أحد كبار الجغرافيين الفرنسيين - والذي يجد اليوم مجاله العلمي المفضل في تناول المسائل المعاصرة الكبرى: الإرهاب، والعنف السياسي، والتشدد الديني، والنزاعات العرقية، وقوميات الأطراف...[3] فالمشكلة الرئيسة التي يطرحها المنطق الجيوبوليتيكي في حقل العلوم الاجتماعية هي أنه ليس من الممكن دائماً توضيح ما إذا كان الخوف والانزعاج اللذان يظهران لدى الكتاب مجرد

---

(١) ف. إنسل (F. ENCEL)، جيوبوليتيك الكارثة، الديمقراطية على المحك في وجه الإسلاموية (Géopolitique de l›apocalypse. La démocratie à l›épreuve de l›islamisme)، مرجع سابق، ص. ١٥٧.

(٢) لم يتم الاعتراف به رسمياً كتخصص مستقل. فالمتخصصون في الجيوبوليتيك يواجهون مشكلات عدة في التعيين الجامعي، فهم مرفوضون على السواء من اختصاصيي العلوم السياسية والجغرافيا الكلاسيكية.

(٣) راجع على سبيل المثال مجلة (Hérodote)، عدد ٧٧، «التحكم أو قبول الإسلامويين» (Maîtriser ou accepter les islamistes)، ١٩٩٥؛ وعدد ٨٠، «مخاطر جيوبوليتيكية في فرنسا»، (Périles géopolitiques en France)، ١٩٩٦؛ وعدد ٨٨، «إندونيسيا، شرق الإسلام» (Indonésie, l›Orient de l›islam)، ١٩٩٨؛ عدد ٩٠، «المتوسط، أمم في صراعات» (Méditerrané: nations en conflits)؛ وعدد ١٠٦، «الأديان والجيوبوليتيك» (Religions et géopolitique)، ٢٠٠٢، إلخ.

«موضوعات للدراسة» («التصورات الجيوبوليتيكية» المعروفة) أم إنهما يشكلان قالباً تفسر في داخله الظواهر الاجتماعية: أحياناً يختلط خيال الخبير بالتفسير العلمي وأحيانا يحدث العكس.

إن متخصصي الجيوبوليتيك معرضون أكثر من غيرهم للتيارات المثيرة للقلق التي تمر بمجتمعاتنا الغربية، والتي تقودهم لأن يتبنوا بقصد أو بغير قصد، تحليلات يشك فيها أحيانا عن الهجرة عموماً، وعن السكان ذوي الثقافة الإسلامية بشكل خاص. ويحدث ذلك بسبب خصوصية الموضوعات التي تتناولها دراساتهم (السكان وسيل المهاجرين، والعلاقات بين الشمال والجنوب، وطرق استيعاب أو فصل المؤسسات الوطنية عن بعضها... إلخ.)، وأيضاً نتيجة لما تطلبه منهم بإلحاح الجهات الرسمية (آراء خبراء، إصدار تقارير لصالح الدولة أو المؤسسات الخاصة...). بهذا تنحرف موضوعات دراساتهم تجاه الهاجس الأمني: بعيداً عن مخالفة المشاعر الشعبية فإنها تتوافق معها، بل وتساهم في توجيه وبناء هذه المشاعر.

مخاوف يمكن أن تضمر أخرى:

معاداة أمريكا والهنتينجتونية «على الطريقة الفرنسية»

إن المزج بين تحليلات علمية من جانب وأخرى لخبراء رسميين أو شبه رسميين من جانب آخر، لا يكون مقبولا إلا إذا ربط بظاهرة أخرى: عدم وضوح الحدود بين أوساط خبراء الأمن والباحثين الجامعيين[1]. وهذا الموقف كان موجوداً في قلب الاستشراق في القرن التاسع عشر كما يشير لذلك إدوارد سعيد، حيث إن «العلم» قد سخر باستمرار لخدمة المشروع الإمبريالي: «وعليه فإن الحديث عن الاستشراق يقود بالضرورة إلى الحديث عن المؤسسة الحضارية الإنجليزية والفرنسية، ولكن ليس وحدهما فقط [...]»[2]. هذه الظاهرة ليست مؤسسية فحسب، ولكنها ترتبط كذلك بالمسيرة الشخصية لكل كاتب. إذ من بين هؤلاء خبراء لا يتوخون الدقة في عملهم، ومع ذلك يطمحون لأن يعترف بمكانهم وسط الأكاديميين. ومنهم باحثون جامعيون يغريهم لسبب أو لآخر، بوصفهم خبراء، أن تكون تقاريرهم مألوفة للجمهور، تاركين بذلك ما يجب عليهم من الدقة العلمية في تناول موضوعات دراستهم. والجسر الذي يربط بين

(١) لوران موشيللي (Laurent MUCCHIELLI)، العنف وعدم الأمن. الأوهام والواقع في النقاش الفرنسي (Violences et insécurité. Fantasme et réalités dans le débat français)، مرجع سابق.

(٢) أ. سعيد (E. SAÏD)، الاستشراق. الشرق الذي خلقة الغرب (L›Orientalisme. L›Orient créé par l›Occident)، مرجع سابق، ص. ١٦.

هـؤلاء الكتاب (باحثين / خبراء) هو التمـدد الإعلامي «للنظريات» التي تتناول اضمحلال «الأمة» وفق نظرية هنتينجتون (Huntington) «على الطريقة الفرنسـية»[1]: فالإسـلام هنا لا ينظر إليه بوصفه دينا مثل غيره مـن الأديان، وإنما قبل ذلك «كحضارة» تشـكل مبادئهـا وقيمها معضلة قومية:

«مـن ثم فإن فكـرة «صدام الحضـارات» التي يعبر عنهـا الكاتب المثير للجدل صمويل هنتينجتون ليست كلها- في حقيقة الأمر- لا تقوم على أساس أو مبالغا فيها: فالخطأ الوحيد لهذا الاستراتيجي الأمريكي هو كونه قـد «أخطأ سياسـياً». فهو متهم بأنه لم يعلن الانتصـار النهائي للنموذج الحضاري الأنجلو- ساكسوني ذي الطبيعة الكونية على الدفاع عن الهوية والقومية [...]. فهذه الحرية الدينية التي لا يشترك فيها الكل ليس فيها البتة ما يشير إلى أن هنتينجتون على خطأ. إنها من الزاوية الاستراتيجية لا تعـدو أن تكون تعبيراً عن الضعف والتقهقـر الأيديولوجي، والروحي فـي أوروبـا التي لم تعد تثق فـي قيمها، والتي تقبـل أن تنمو فوق ترابها حضـارات معاديـة وغازية عن طريق الهجرة، غيـر المنضبطة، الوافدة من العالم الإسلامي الأفريقي»[2].

إن حجة هؤلاء الخبراء الجدد ضد الإسـلام تسـتند على محاولة التناول

---

(١) ص. هنتينجتـون (S. HUNTINGTON)، صراع الحضـارات (Le Choc des civilisations)، مرجع سابق.

(٢) أ. دل فال (A. DEL VALLE)، الإسلاموية والولايات المتحدة. تحالف ضد أوروبا (Islamisme et Etats-Unis. Une alliance conter l›Europe)، مرجع سابق، ص. ٢٠-٢١.

بموضوعية للأضرار الناجمة عن تعدد الثقافات - الذي قد يصبح مضاداً للتقاليد الفرنسية - والذي قد يمثل النشاط الإسلامي أكثر أوجهه ظهوراً، بل والأكثر تهديداً لتماسك الأمة. ومنطقهم في هذا يكشف في آن واحد عن صلته بالتخيلات التي توحيها كراهية الغرباء لدى اليمين المتطرف، وعن صلته بأمور مقلقة ترسم بصورة أو بأخرى ملامح مخاوف جديدة من الإسلام تختلف تماماً عن الأفكار المسبقة التقليدية المعادية للمسلمين.

ومن أجل فهم الجذور الفكرية لهذه «الهنتينجتونية على الطريقة الفرنسية» فإنه من المفيد الرجوع لخط السير الأيديولوجي لخبراء الخوف هؤلاء، والذين يستر مخاوفهم من الإسلام- في حقيقة الأمر- مخاوف أخرى، من بينها الكراهية العميقة لأمريكا، الرمز الأمثل للمجتمع المتعدد الثقافات. ومن تحليلاتهم لا نستنتج في الواقع إلا تصوير هنتينجتون للتعايش الذي تلفه الشكوك بين الغرب اليهودي-المسيحي والشرق العربي-الإسلامي، مع إدراج دولة إسرائيل في «الكتلة الحضارية» الأولى[1]:

«إن حرب الحضارات والأديان، وهي القوة الدافعة للشمولية الثالثة، بعيدة جداً عن أن تكون من ابتكارات هنتينجتون. والغرب لم يعلنها و لا يرغب فيها بتاتاً، ولكن من أعلنها هم الإسلامويون الذين يحاولون الاستفادة من المأساة الفلسطينية، والعراقية، والشيشانية من أجل إشعال النار في العالم الإسلامي كله. ويجد خطابهم للأسف صدى

(١) من أجل وصف «الفضاء الجغرافي العربي-الإسلامي» يستخدم دل فال تعبير «الكتلة الإسلامية».

قوياً في أوساط العامة داخل العالم الثالث العربي-الإسلامي ممن يأملون أن ينتقموا عن الحقبة الاستعمارية المهينة في تاريخهم، وفي أن يهزموا نهائياً «الغرب اليهودي-الصليبي».[1]

ومن جانب آخر فإن تبني دل فال موضوع «المخاوف الجديدة من اليهودية» ما هو إلا من أجل الرفع من قيمة حججه المتعلقة بالمخاوف من الإسلام:

«لأن هذه المظاهرات المعتادة المفعمة بعبارات الكراهية الواضحة في فرنسا والتي تحمل صيحات مثل «إسرائيل للعرب، اليهود أغبياء»؛ «الموت للصهاينة»؛ «عاش الجستابو»؛ «عاشت أوسشويتز، الموت لليهود» قد تجاوزت عتبة التسامح. إنها المرحلة السابقة لعبور قريب نحو الأحداث الدامية، مما يجعلنا نرى أن الكثيرين من اليهود اليوم يخافون الخروج معتمرين طاقيتهم (**Kippa**)، بسبب ما قد تجره عليهم، بل ويفكرون في الهجرة إلى إسرائيل، رغم العنف الذي يعصف أيضا بهذا البلد».[2]

في الواقع، إن هذا التأييد للأطلسي (**pro-atlantisme**)، وهذا الدفاع غير المشروط عن دولة إسرائيل يظهران في حقيقة الأمر كردة انتهازية تستغل، لأقصى درجة، المشاعر التي أثارتها أحداث ١١ سبتمبر. ولأن

(١) أ. دل فال (A. DEL VALLE)، الشمولية الإسلاموية تهاجم الديمقراطيات (Le Totalitarisme islamiste à l'assaut des démocraties)، مرجع سابق، ص. ٢٥.

(٢) المرجع السابق، ص. ١٠٧.

أفكار دل فال وأمثاله في منشورات (L›Age d›Homme) تنبع في الأصل من توجه خائف من أمريكا ومعاد لإسرائيل[١]، فإن الدولة العبرية كانت في نظره عبارة عن قاعدة متقدمة للولايات المتحدة. وفي كتاباته الأولى، كان هذا الخبير في الجيوبوليتيك مسكوناً، ولدرجة الهوس بنظرية المؤامرة الإسلامية-الأمريكية ضد أوروبا الموحدة: إن أمريكا التي لا تملك حضارة[٢] قد تكون ائتلفت، منطقياً، مع الحضارة المحمدية للإجهاز على «روح الشعوب الأوروبية» وعلى روح فرنسا بصفة خاصة، التي صارت أكثر ضعفاً من غيرها بسبب وجود التجمع الإسلامي الكبير فيها:

«إذا كان ثمة خطر «عنصري» حقيقي في الغرب فهو على الأرجح ليس نتيجة التحرك المشروع للشعوب الأوروبية العريقة في الدفاع عن هويتها المهددة في بقائها عن طريق إمبرياليتين متنافستين، وفي ذات الوقت متحدتين في التعطش للانتقام من أوروبا: إحداهما آتية من واشنطن وهوليوود (حضارة عالم الماك Mc World) التي تعمل في تخطيط محكم لإبادة كل ما هو ثقافي؛ والأخرى تقبع في مكة، وتجعل هدفها الغزو الأيديولوجي - الديني والسكاني للقارة العجوز أولاً، ثم العالم أجمع بعد حين (وهي «الجهاد الإسلامي الجديد»)[٣].

---

(١) وهذا بخلاف موقف ف. إنسل (F. Encel) الذي يتبنى دائماً موقفاً يصب في صالح دولة إسرائيل.

(٢) بالنسبة لهؤلاء الخبراء القادمين من اليمين المتطرف أو اليمين السيادي، فإن الولايات المتحدة ليست حضارة وإنما هي «ثقافة-فرعية» منحلة صنعها المنعزلون القدماء من الأوروبيين.

(٣) أ. دل فال (A. DEL VALLE)، الإسلاموية والولايات المتحدة. تحالف ضد أوروبا» (Islamisme et Etats-Unis. Une alliance contre l›Europe)، مرجع سابق، ص. ١٧-١٨.

يذهب دل فال وأمثاله بعيداً للدرجة التي يساندون فيها من وجهة نظر تاريخية فرضيات المراجعين الجدد (néorévisionnistes) محاولين بذلك إقناع قرائهم بأن الأمريكيين قد يكونون الفاعلين «لمذبحة كونية» لا تقل عن جرائم ستالين وهتلر معاً :

«ربما يكون قد حان الوقت ليدرك السياسيون الأوروبيون أو مستشاروهم في مسائل الدفاع والاستراتيجية أن الأشكال الجديدة للتهديد هي في جوهرها متوسعة، وتمس كل الأمم، ونفسية، واقتصادية، وفوق ذلك تأتي من الداخل. لأن الأسلحة الحديثة مثل قنوات (إم.تي.ڤي)، و (إم ٦)، وراديو الطرب (Fun radio)، و (إن.آر.جي) ومثل ماكدونالدز أو هوليود وغيرها قد تفعل في مضمار إبادة الشعوب أكثر مما فعله ستالين أو هتلر في الماضي...»[1].

أيقارن الماكدونالدز والسينما الأمريكية بغرف الغاز النازية والقولاق السوفييتي؟ إن وراء جيوبوليتيك الرعب هذا يكمن أيضاً تجسيد الشأن الإسلامي الذي يهمنا هنا : فالإسلام لا يعامل «بوصفه ديانة عادية» ولكن قبل ذلك على أنه حضارة عدوانية (ترديد كلمة «جهاد» في موضوعاتهم) يسعى المنتمون لها ممن تسربوا إلى بلادنا (الطابور الخامس الإسلامي) للقضاء على الحضارة الأوروبية، وعلى «الروح الفرنسية» (La francité) :

يجب أن نكرر دائما : إن الإسلام أصولي منذ مولده، بطبيعته وبالجينات

(١) المرجع السابق، ص. ٢٨١.

المكونة له. وهذه الأصولية تقوم في مجملها على شخصية نبيه، والظروف التاريخانية (historicité) التي ولدت فيها ديانته، وعلى الصدقية التي لا مراء فيها «لكتابه» والعقلانية التي دون بها هذا الكتاب»[1].

يختصر هنا الإسلام في كونه روحاً شريرة يمثل معتنقوه، (المسلمون) منذ نزول الوحي، حملتها وناشريها في العالم بأسره. ومن هذه الزاوية نرى أن الأمر لا يبعد كثيراً عن النظريات العرقية التي سادت في القرن التاسع عشر الميلادي: «الاختلاف الظاهر في المنهجيات يطغى عليه توافقهم، بصفتهم مستشرقين، حول الانحطاط الكامن في الإسلام»[2].

بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر تبنى دل فال، الذي أصبح أوسع الخبراء انتشارا في وسائل الإعلام، فكرة «الكتل الحضارية» والتعامل معها بصفتها واقعا لا يقبل الاختزال، وربطها بمناخ الإرهاب الجديد: فعن طريق التلاعب بالألفاظ تحول مصطلح «إسلام»(Islam) بانتظام إلى مصطلح «إسلاموية»(Islamisme)، كما لو أن الكاتب أراد من الآن فصاعداً أن يدخل في تحليلاته بعض الغموض، مميزاً بين «مسلمين معتدلين» و «مسلمين متشددين». غير أن استخدام هذه العبارة لا يعدو أن يكون من باب التضليل، إذ إن الكاتب يواصل اعتماد الأفكار التي تقول بأن كل مسلمي فرنسا هم قوى «إرهابية-إسلامية» محتملة. أي

(١) ر. مارشاند (R. MARCHAND)، فرنسا في خطر من الإسلام. (France en danger d›islam)، مرجع سابق، ص. ١١٦.

(٢) أ. سعيد (E. SAÏD)، الاستشراق (L›Orientalisme)، مرجع سابق، ص. ٢٤٠.

أن المخاوف من الإسلام كأحكام مسبقة لدى دل فال وأمثاله من متبني النظرية الأمنية تظل كما هي، إلا أنها أصبحت مغلفة في ثوب معركة أيديولوجية مزعومة ضد «الإرهاب الإسلامي» العالمي، الذي لا يمثل في الواقع غير النهاية المنطقية للمشروع المحمدي الأصلي:

«تحت مظلة هذا التمدد المتعدد الأشكال لنازية القرن الحادي والعشرين بدأ الوجه الجديد لكراهية الأجانب لدى الإسلاموية العالمية يجد من الآن فصاعداً أصداء قوية في «الضواحي التي يقطنها المسلمون»، مما يفسر مظاهر السرور والمساندة التي تفوق كل تصور تجاه ابن لادن بعد الحادي عشر من سبتمبر في العديد من الأحياء الإسلامية في بلجيكا، وفرنسا، والمملكة المتحدة، وحتى في أمريكا. تلك الضواحي التي أعطيت بغير حساب من قبل القيادات الغربية كمرعى لدعاة الكراهية الإسلاموية، بحيث لم يعد يستطيع لا اليهود ولا المسيحيون العيش بأمان فيها»[1].

وحتى لو اختلفوا في الحلول التي يتبنونها (إقصاء، أو استيعاب، أو تعامل أمني؟) من أجل وقف اتساع ما يطلقون عليه «أسلمة فرنسا»، فإن خبراء الخوف الجدد يلتقون عند اعتبارهم المسؤولية السياسية والأخلاقية بأنها «انحطاط تعيشه فرنسا». فهم في آن واحد يوجهون نقداً حاداً «للنظام» في لغة تخاطب الجماهير وتعادي النخب وتشهر برجال السياسة ووسائل الإعلام ومثقفي ما بعد ١٩٦٨. فالنخب لدينا

(١) أ. دل فال (A. DEL VALLE)، الشمولية الإسلاموية تهاجم الديمقراطيات (Le Totalitarisme islamiste à lʼassaut des démocraties)، مرجع سابق، ص. ١٠٥.

قد تكون تخلت عن رسالتها الحضارية بسبب غوغائيتها، أو جبنها، أو اهتمامها بالتجمعات الإسلامية:

«ولكن المسؤولين السياسيين في الديمقراطيات الليبرالية الذين تم تأهيلهم في مدارس التكنوقراط واستطلاعات الرأي الإعلامية لا يتعلمون بكل أسف كيف يخدمون «المصلحة العامة». فهم لم يعد يتم تأهيلهم للدفاع عن المصالح العليا لأمتهم. إنهم يسمون أنفسهم جمهوريين، ولكن «الأمر العام» (res publica) عند اللاتينيين أو عند الفيلسوف الفرنسي بودن (Bodin)، غريب عليهم تماماً. إنهم لا يعرفون سوى ما تمليه بقوة فرص إعادة انتخابهم، فيخضعون لتحقيق هذا الهدف للقوة الطاغية لوسائل الإعلام، والتي هي بدورها تشكل لهم- كما يودون- ما يقال عنه رأي عام يخطبون وده. إن مجتمعاتنا الليبرالية «الخاضعة لسلطة الإعلام» ضعيفة بشكل خاص أمام الصور الجديدة لتدهور الوضع نفسياً وثقافياً كما ذكرنا. ولا ينبغي- بالتأكيد- الاعتماد على قادتنا السياسيين الحاليين في تشخيص التحديات والأضرار الجسيمة التي يجب أن تواجهها مجتمعاتنا، المنهكة بالشيخوخة والضعف، بكل السبل خلال القرن الحادي والعشرين»[1].

إن إدانة النخب الجمهورية من قبل بعض المتشددين المهووسين بالمخاوف من الإسلام مثل رينيه مارشاند، تصب أحياناً بوضوح في إطار معاداة

---

(١) أ. دل فال (A. DEL VALLE)، الإسلاموية والولايات المتحدة. تحالف ضد أوروبا» (Islamisme et Etats-Unis. Une alliance contre l›Europe)، مرجع سابق. ص. ١١٨.

السامية :

«كيف لا نفكر في يهود فرنسا الذين يدافعون-حماية للجمهورية- عن كل التجمعات، دون أن يدروا، أنه في فرنسا المنقسمة، وإثر أول صدام حتمي بين أكبر جماعتين فيها، قد يكون اليهود هم أول الضحايا ؟»[1] .

إن ما يزعم أنه نظرية «لا شيء يهم» (الأمة، والقيم الأساسية للتماسك...) ينزلق تدريجياً صوب تصفية حساب ذات شكل جماهيري، ونحو محاسبة موجهة «للنخبة المسيطرة» التي حملت مسؤولية «الانحطاط الذي تعيشه فرنسا» والذي تشكل أسلمة الضواحي أحد مظاهره، وفي ذات الوقت العامل الذي يزيد من حدته.

وأخيراً، فإن الرهان الأساس لهذا الوجه الأمني الجديد للمخاوف من الإسلام هو اتخاذ ضحية ما. فعند خبراء جيوبوليتيك الخوف كما هو عند الباحثين ذوي توجهات «الجمهورية الوطنية»، يرمي الخطاب الذي يتناول الإسلام لتبديل النظرة التي تجرم وتحقر المسلمين بأخرى تدين «العنصرية الموجهة ضد الفرنسيين». ففرنسا قد لا يكون لديها مخاوف من الإسلام -عندما يقرون بذلك- إلا بسبب تبني المسلمين توجهات وسلوكيات «انحرافية» تبرر جزئياً ما هم ضحاياه الآن من الرفض داخل المجتمع. وعندها قد لا يكون المسلمون هم«الضحايا الحقيقيون» الذين يعانون من نظرة الآخر الذي يمثل الأغلبية، وإنما الضحايا هم الفرنسيون «الأصليون»

(١) ر. مارشاند (R. MARCHAND)، فرنسا في خطر من الإسلام. (France en danger d›islam.)، مرجع سابق، ص. ١١٨.

الذين جرى الاعتداء على صميم هويتهم القومية بواسطة الأسلمة المتسارعة، وكل أشكال العولمة والتوجه الكوني (cosmopolitisme). من هذه الزاوية، يصبح خطاب خبراء الأمن الجدد صدى للخطاب المعادي للغرباء وللهجرة لدى أحزاب اليمين المتطرف (الجبهة الوطنية، الحركة الوطنية الجمهورية...) أو لبعض أنصار اليمين السيادي (الحركة من أجل فرنسا التي يقودها فيليب دو فيلييه Philippe de Villiers، والمركز الوطني للمستقلين وغيرها) حيث تقوم استراتيجية كل هؤلاء على إضفاء الشرعية على وجود «عنصرية معادية لفرنسا». وهذا بالطبع أخطر من أي نوع من التمييز الاجتماعي والعرقي، لأنهم يرون، في آخر المطاف، أن أول «عرق مهدد» هو «الفرنسي» (La francité).

الباب الثالث

المعاداة الجديدة للسامية
أهي من فعل المسلمين؟

«إن الهجوم على أي كنيس هو تماماً كالهجوم على المساجد»

علي راحني، أشار إليه إكزافييه تيرنيزيان

صحيفة (Le Monde)، ١٢ ابريل ٢٠٠٢

ما العلاقة بين ما يغذي الأفعال المعادية للسامية فوق التراب الفرنسي والمظاهر الأخيرة للمخاوف من الإسلام؟ من المغري جداً أن ننسج على منوال إدوارد سعيد[١] مقاربة بين الظاهرتين المتعلقتين بذات العقدة النفسية التي تمثلهما. ونعني بذلك الصورة النمطية لليهودي وللعربي المسلم التي تثير في الخيال الغربي نوعاً من «أثر اللاهوتية المتعصبة»[٢]، وذات الفكرة نجدها بشكل أكثر إثارة عند صمويل هنتينجتون عندما يكتب «إن معاداة السامية الموجهة نحو العرب قد حلت بقدر كبير في

(١) إدوارد سعيد (Edward SAÏD)، الاستشراق. الشرق كما صوره الغرب (L›Orientalisme. L›Orient créé par l›Occident)، مرجع سابق.

(٢) إتيان باليبار (Etienne BALIBAR)، (تغيرات معاداة السامية) (Transformations de l›antisémitisme)، صحيفة (Libération)، ٩ يوليو ٢٠٠٢.

أوروبا محل تلك التي كانت مصوبة نحو اليهود»[١]. فبهذا قد تكون عالمية الفكر المسيحي انبنت في إطار حركة الانفتاح على العالم وهي تتوق لحمل رسالة تحريرية قد تبرر- نوعاً ما- الإبقاء على اليهودي والعربي المسلم في مكانهما «كآخر» متشدد.

هذا المنظور قابل بلا شك للنقاش من منطلق أن المخاوف الحالية من الإسلام تبدو لنا تنأى أكثر فأكثر عن معاداة السامية كما هي معروفة تقليدياً. في الواقع، إن اعتبار مسلمي فرنسا هم اليوم ربما ضحية «الكراهية الموجهة نحو الساميين» لأنهم أيضاً ساميون، كما يقول بعض مسؤولي المنظمات المناهضة للعنصرية، يبدو لنا شيئا يتعلق أكثر بالتوجه التصالحي (المثالية التي ينشدها الحوار اليهودي-الإسلامي أو اليهودي-العربي) الذي يبحث عن التوفيق بين «هويتين» يفترض أنهما مضطهدتان من قبل الثقافة الأوروبية المهيمنة. وهنا تقدم، لمن يتبنى فكرة الحضارة اليهودية-المسيحية، أطروحة تقيم مقابلة تقرب بين أقليتين ثقافيتين ودينيتين في كونهما ضحيتين بذات القدر. ومهما يكن هذا التفسير لمعاداة السامية بمفهوم «خاص» (المخاوف من الإسلام ومن

(١) ص. هنتينجتون (S. HUNTINGTON)، صراع الحضارات (Le Choc des civilisations)، مرجع سابق، ص. ٢٩٣.

اليهودية) خيالياً فإن له، مع ذلك، ميزة أنه يطرح إطاراً معيارياً ما داخل سـياق مشحون بالمشـاعر بدأ ينفي فيه فلاسفتنا الوطنيون أي صلة تربط الظاهرتين.

ولقـد تعددت المؤلفات من أجل تأسـيس علاقة سـببية دراماتيكية بين «مخاوف جديدة من اليهودية» وأسـلمة قطاعات واسـعة من المجتمع[1]. فبالنسـبة لبيير أندريـه تاجييـف، ورفائيـل دراي (Raphaël Draï) أو شـمويل تريجانو قد يعبر «العرب-المسـلمون»[2] في فرنسا وفي العالم أجمع من خلال الكراهيـة المتجددة «لليهودي» عن متنفس لما يعانون من كبت اجتماعي، وسياسـي، واقتصادي. ففـي هذا المخطط لا تمت معاداة السـامية الحالية بأي صلة لسابقتها في «فرنسـا القديمة»: إذ إن ناشطيها وناشـريها بين الناس لم يعد تجنيدهم يتم داخل الأوساط التقليدية لليمين الوطنـي ولكن في ضواحي المدن الكبيـرة، من بين الجانحين من المغاربة أو

(1) بيير أندريه تاجييف (Pierre-André. TAGUIEFF)، المخاوف الجديدة من اليهودية (La Nouvelle Judéophobie)، مرجع سابق. رفائيل دراي (Raphaël DRAÏ)، تحت شارة صهيون. المعاداة الجديدة للسـامية قد وصلت (Sous le signe de Sion. L›antisémitisme nouveau est arrivé)، منشـورات (Michalon)، باريس، ٢٠٠١. انظر أيضا، شمويل تريجانو (Shmuel TRIGANO)، تراجع الجمهورية. اليهود والمسلمين في فرنسا (La Démission de la République. Juifs et Musulmans en France)، منشورات (PUF)، باريس، ٢٠٠٣.

(٢) هي التسمية التي يطلقها كثيراً هؤلاء الكتاب على السكان المهاجرين ذوي الأصل المغاربي، الأفريقي أو التركي خلقاً بهذا لازدواجية مرتبطة بالآخر: جغرافية (العالم العربي الإسلامي) ودينية (الإسلام).

الأفارقة، بل وبطريقة أكثر تنظيماً داخل المنظمات الإسلامية المتشددة المؤثرة في الشارع:

«من الواضح جداً أن الاعتداءات ذات الطابع المعادي للسامية صادرة من أوساط عربية-إسلامية. وهذا تثبته الشهادات والتحقيقات»[1].

إلى جانب ما تجده هذه «المعاداة الجديدة للسامية» من قوة دافعة عبر نقلها للنزاع الإسرائيلي-الفلسطيني فوق التراب الفرنسي (انتفاضة الضواحي)، فإنها قد تساهم في تحديث الكراهية القديمة التي يكنها المسلمون لليهود ولإسرائيل. إنها قد ترجعنا بلا عودة إلى عقدة مركبة (الحيز المكاني والحيز الزمني) ذات أربعة أبعاد: (١) الذاكرة الإسلامية القديمة في معاداة اليهود، و(٢) معاداة اليهود التي تبررها بالنسبة للعرب-المسلمين معاداتهم للصهيونية، و(٣) نقل الإرهاب الفلسطيني لفرنسا، و(٤) رمزية التنافس مع المجتمع اليهودي المحلي الذي ينظر إليه بوصفه جماعة قوية ومؤثرة. وهذا الرابط بين الماضي والحاضر من جانب، وبين الخارج والداخل من جانب آخر، يفسر التوجهات والسلوك الانحرافي «للشبيبة في الضواحي»، والذي يأتي تضامناً

(١) ش. تريجانو (S. TRIGANO)، تراجع الجمهورية (La Démission de la République)، مرجع سابق، ص ٥.

مع العرب-المسلمين، وتقليداً لما تفعله الثورة الفلسطينية (انتفاضة المساجد في فرنسا) تستورد «فوق تراب الجمهورية الضائع»[1] اتجاهات شديدة الخطورة، بل وقاتلة. إذ إن هذه «المعاداة الجديدة لليهود» ذات المظهر الفرنسي الإسلامي، قد تتأسس بسهولة داخل التيارات المعادية للصهيونية ولأمريكا، والتي تتعرض لها حالياً قطاعات واسعة من المجتمع الفرنسي، ابتداء من اليسار المتطرف ذي التوجه الأخوي العالمي (alter-mondialiste)، إلى الأوساط المسيحية المساندة للعالم الثالث، ومروراً بوسائل الإعلام والنخب السياسية المتعاطفة مع «القضية الفلسطينية»، ثم التنظيمات الإسلامية في فرنسا كاتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا بصفة خاصة.

---

(١) إيمانويل برينر (Emmanuel BRENNER) (إشراف)، تراب الجمهورية الضائع (Les Territo-res perdus de la République)، منشورات (Mille et une Nuits)، باريس، ٢٠٠٢.

خلف الجرأة الفكرية، رؤية محافظة للنظام الاجتماعي

هذا التفسير لمعاداة السامية والذي يظهر في آن واحد كحام (تبصير المواطنين الشرفاء الذين تستغلهم وسائل الإعلام) وكحركة ثائرة (الخروج على ما هو صائب سياسيا) يندرج حقيقة داخل رؤية محافظة جداً للمجتمع الفرنسي ولقضاياه الحالية. إنها رؤية تجعل من نفسها ناطقة باسم نظام أخلاقي جديد ينصب أحياناً في كتابات مقالية ذات إيحاء جماهيري، ويمكن إرجاعها إلى أربعة خطوط عريضة تميزها.

فهي قبل كل شيء تتخذ شكل نغمة معادية للنخبة والمفكرين: فأزمة «النموذج الجمهوري» عندها قد تعود أساساً للتوجهات الانتخابية والتجارية الجشعة للنخبة السياسية الفرنسية ومن يحالفها في الحقل الثقافي والعلمي (من يحسنون التفكير ومن يجيدون الخطاب)[١]. ومعاداة النخبة هذه لا يمكن فصلها عن تصور شبه ساذج نوعاً ما في وسائل الإعلام «السلطة الرابعة» التي ساعدت في نمو المعاداة الجديدة للسامية عن طريق انحيازها عند تناول النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني. فعندما يتبنى كل من المتخصص في العلوم السياسية رفائيل دراي[٢]

---

(١) يهاجم ب.-أ. تاجييف بشكل خاص الكتاب في العلوم الاجتماعية المتعاطفين مع المنظمات الإسلامية أو/ و الإسلاموية.

(٢) يتحدث دراي (R. DRAÏ) عن «(معقل) إعلامي ليهود فرنسا»، تحت شارة صهيون» (Sous le s -gne de Sion)، مرجع سابق، ص. ٦٩.

والفيلسوف شمويل تريجانو[١] نظرية «اللوبي»، فإنهما يدينان بذلك الأفعال غير السليمة «للطبقة السياسية-الإعلامية»:

«ماذا يكون ما شهدناه حقيقة خلال هذه الفترة إن لم يكن عملية منظمة هائلة لحجب المعلومات الخاصة بالشرق الأوسط بالطبع، ولكن أيضاً- وبطريقة تلقائية- عملية ذات تأثير مباشر على الوضع الفرنسي الذي أصبح فيه العنصر العربي الإسلامي، كما تراه الطبقة السياسية-الإعلامية، عاملاً بالغ التأثير؟ توجد في هذه الأوساط بالتأكيد استثناءات مهمة، ولكنها ذات تأثير محدود، وعلى كل حال أقلية. ألف حيلة وحيلة في الأساليب الخطابية والأيديولوجية فرضت عبرها وسائل الإعلام تحقيقات مزيفة حول الأحداث، لدرجة «تصحيح» كل ما لا يساير مسلماتها [...]»[٢].

وتبث هذه الرؤية بعد ذلك وباستمرار المخاوف من الكوارث: فاليسار في فرنسا قد يتحمل المسؤولية الكبرى عن تنمية المخاوف من اليهود، وذلك لأنه أعمى تماماً عما يفعله «الشباب العربي-المسلم»، ولأنه متعاطف معهم: وسياسة التفرقة (وهنا محاسبة لسنوات ميتران) التي وصفت بأنها «تمييز إيجابي على الطريقة الفرنسية» قد تكون ساهمت في خلق شعور بالقوة والانفلات من العقوبة لدى الشباب المسلمين.

---

(١) يستخدم تريجانو (S. TRIGANO) عبارة «قوى التشويه» (pouvoir de déformation)، تراجع الجمهورية (La Démission de la république)، مرجع سابق، ٤٥.

(٢) ش. تريجانو (S. TRIGANO)، المرجع السابق، ص. ٤٦.

وأخيرا، فهذا التفسير يعيد كل الصورة السلبية الاستشراقية عن الإسلام، والذي تم تقديمه كدين يمتنع عن المواطنة والعلمانية. وذلك لأن معتنقيه لا يمكن أن ينفصلوا عن «تصورهم الأممي»، أي اعتقادهم في أمة واحدة عالمية وخالدة.

والأخطر من هذا كله أن هذا التفسير «للمخاوف الجديدة من اليهودية» أو «المعاداة الجديدة للسامية» والذي يزعم رفض إقامة تجمعات منفصلة عن بعضها البعض داخل الفضاء الفرنسي العام، انتهى به الأمر إلى إعطاء شرعية لمفهوم تجمعات تفتقر للمرونة حيال القضايا الاجتماعية- السياسية. فصحوة ما يزعم أنه «إحساس الجماعة» لدى الشباب العربي- المسلم، تنزع في حقيقة الأمر لأن يتم تفسيرها تفسيرا واحداً، محتقرة بذلك كل الحقائق الاجتماعية الأخرى، كما يشير إلى ذلك بوضوح فيليب كوركوف (Philippe Corcuff) في تناوله للأطروحة الرئيسة لتاجييف: «بمجرد تأسيسه لعلاقة بين المخاوف الإسلاموية من اليهود والصعود (الفعلي) لمعاداة السامية في فرنسا، فإن تاجييف يعطي نفسه مزيداً من الحرية في تناول المؤشرات التجريبية [...]. وبانجرافه خلف منطق الخلط بين الأمور، فإن هذا المحلل الدقيق للجوهرانية العنصرية (أي اختزال كل أفراد مجموعة ما في ذات واحدة سلبية) يتحول هو ذاته إلى جوهراني فيما يتعلق بالناشطين المناهضين للعولمة كالشباب ذوي الأصول المغاربية»[1].

إننا أمام رؤية اجتماعية على طريقة هنتينجتون - نظرية «صراع

(١) فيليب كوركوف (Philippe CORCUFF)، مجلة (Charlie Hebdo)، ٢٧ فبراير ٢٠٠٢.

الحضارات» معممة في صيغتها الفرنسية-الفرنسية (franco-française)- يفترض أنها تستشعر (أو تستبق؟) النزاع الوشيك بين الأقليات على التراب الفرنسي. وهذه الرؤية الكارثية للمجتمع الفرنسي ليست من صنع فئة اجتماعية بعينها. «فالمجتمع اليهودي» في جملته لا يشاطر رئيس المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية في فرنسا (CRIF) روجيه كوكيرمان (Roger Cukierman) تفسيراته المنتمية لتوجه المحافظين الجدد، كما لا يشارك تفسيرات الباحثين في العلوم الاجتماعية مثل ب.أ. تاجييف، ورفائيل دراي، وشمويل تريجانو، أو ميشيل تريبالا. على العكس من ذلك، فإن قراءة المواقف الفردية والجماعية تكشف عن تباين كبير جداً في وجهات النظر حول تفسيرات معاداة السامية اليوم، معطية بذلك إضاءات تتلاءم مع تحليلنا[1]. وفي هذا المعنى، فإن المخاوف المبطنة من الإسلام التي تبدو من خلال بعض المقالات ذات النبرة الهجومية عند تناول موضوع تجدد معاداة السامية في فرنسا، لا تشكل «موقفاً لمجموعة ما» ولا موقفاً مؤسسياً، أو حتى قراءة دقيقة للظاهرة.

(١) انظر خاصة جان كريستوف أتياس (Jean-Christophe ATTIAS) وإيستر بنباس (Esther BENBASSA)، «لسنا ضحايا»، صحيفة (Le Monde)، ١٧ ديسمبر ٢٠٠١؛ إيال سيفان (Eyal S-VAN)، «الارتباك الخطير لدى يهود فرنسا» (La dangereuse confusion des juifs de France)، صحيفة (Le Monde)، ١٧ ديسمبر ٢٠٠١؛ نونا ماير (Nonna MAYER)، «المعاداة الجديدة للسامية لا تزال تشبه بصورة مخيفة سابقتها» (Le «Nouvel» antisémitisme ressemble encore furieusement à l'ancien!)، صحيفة (Le Monde)، ٤ ابريل ٢٠٠٢.

تهيؤات تآمرية: أسلمة العالم والضواحي الفرنسية

إن أحد العناصر الأساسية التي تلتقي فيها «العقدة اللاهوتية - مخاوف من اليهودية ومخاوف من الإسلام» هو، كما يسميه إ. باليبار (E. Balibar)، الرؤية الوهمية حقاً لدى صناعها الذين يتقبلون سيناريو المؤامرة العالمية: «في الحالتين هناك، بالتأكيد، «حقائق»: تأثير اللوبي اليهودي في الولايات الأمريكية، واعتداءات تنظيم القاعدة، أو ما يظن كذلك تحت هذا المسمى... ولكن التهيؤات التآمرية تتجاوز هذه العناصر، وتغرقها في داخل لجة «شيء» خفي ومخيف، لا يمثل فيه الشعب اليهودي أو العربي غير الأدوات أو الوكلاء [...]»[1].

غير أن القطيعة التي يلجأ إليها حماة أطروحة «المخاوف الجديدة من اليهودية» ترمي بالتحديد إلى نزع المشروعية عن التطابق بين الظاهرتين، وذلك بعزل أحد العناصر الخاطئة للعقدة التآمرية (العرب-المسلمين) ووضعه بشكل منتظم في مقابل كل الآخرين (اليهود، المسيحيين، اللادينيين...). وبذا يجد الخيال التآمري نفسه وقد ارتسم في معنى واحد هو «المؤامرة الإسلامية» فقط، إذ يشكل المسلمون المتعصبون خطراً بالنسبة لمجموع الحضارة الغربية، التي أصبح اليهود داخلها:

---

(١) إ. باليبار (Etienne BALIBAR)، «تغيرات معاداة السامية» (Transformations de l›antisémitisme)، مقال سابق.

«هذا الخليط من التقيد الحرفي الغبي، ومن التهيؤات القاتلة الذي ينشره بلا كلل الملالي، والشيوخ، وعلماء الدين، وأئمة المساجد الذين ينضوون تحت الإسلاموية، يستلهم منه الإرهابيون الإسلاميون استراتيجيتهم ذات الاتجاه الواحد: إثارة الحرب العالمية الثالثة التي سوف تشهد العالم الإسلامي موحداً في مواجهة الغرب، بل بقية العالم»[١].

من هذا المنطلق فإن معاداة السامية ومعاداة الصهيونية (التوأمين السياميين كما يرى دراي)[٢] قد تكون في المقام الأول تعبيراً عن معاداة الغرب. وهذا ما قد يفسر - وفق أراء الكتاب من أمثال دراي - التواطؤ الموضوعي للمسلمين المتشددين مع ناشطي العالم الثالث، والناشطين في حقل الأخوية العالمية؛ أولئك الذين بتجريمهم لأنفسهم بسبب «تاريخهم» الاستعماري يسيطر عليهم هاجس خلق نوع من «كراهية الذات»:

«إن الخطاب الإسلاموي يقوم بدور المترجم والمفصح عن هذه «المعاداة للصهيونية» لدى الأوساط التي ما زالت تتصور أنها «تقدمية»: فمضمون «معاداة الصهيونية» هو مخاوف من اليهودية ذات طبيعة استئصالية. وهذا البرنامج للإبادة الجماعية يشمل كذلك بعضاً مما يتعلق بمعاداة

(١) ب.أ. تاجييف (P. -A. TAGUIEFF)، المخاوف الجديدة من اليهودية (La Nouvelle Judé - phobie)، مرجع سابق، ص. ١٥٧.

(٢) ر. دراي (Raphaël DRAÏ)، تحت شارة صهيون. المعاداة الجديدة للسامية قد وصلت (Sous le signe de Sion. L›antisémitisme nouveau est arrivé)، مرجع سابق.

العولمة التي أصبحت مقبولة ومسايرة «للموضة»[1].

داخل هذه المؤسسة التي تسعى لأسلمة العالم، تحتل فرنسا موقعاً خاصاً لأنها الأرض المفضلة لالتقاء «الأضداد» (العدمية الفرنسية-الفرنسية) وأن الأزمة التي يعيشها «نموذج» الاندماج داخل الجمهورية تشجع - ربما - على تحول فضائها العام إلى تجمعات يمثل «الشباب العربي-المسلم بالتأكيد الناقل الأساس لها. إذ إن مخاوفهم من اليهودية والمقنعة بمعاداة الصهيونية تخدمهم بطريقة فاعلة في إيقاعهم المزدوج (أعمال العنف ضد اليهود) و الاحتجاج في إطار القانون (الاشتراك في المظاهرات المؤيدة للفلسطينيين إلى جانب نشطاء الأخوية العالمية). ومجمل القول: إن حماة نظرية «المخاوف الجديدة من اليهودية» لا يولون اهتماما كبيراً لتحليل الدوافع الأيديولوجية والثقافية والدينية لمعاداة السامية، في مقابل بسط سيناريو أسلمة فرنسا أمام أعيننا ملتقين في ذلك مع بعض أنماط المخاوف من الإسلام التي يحملها خطاب اليمين المتطرف[2]. والدليل على ذلك هو أن موضوعاتهم تكاد تخلو من اليهود الذين يقعون ضحية لأفعال عنصرية، في الوقت الذي لا يغيب فيه «الشباب العربي-

(١) المرجع السابق، ص. ٧٤.

(٢) ارجع لتصريحات رئيس المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية في فرنسا روجيه كوكيرمان في صبيحة الجولة الأولى لانتخابات الرئاسة ٢٠٠٢: «إن نجاح لوبن (Le Pen) هو رسالة تطمينية للمسلمين، لأنه عارض دائماً هجرة المسلمين»، صحيفة (Ha›aretz)، ٢٣ ابريل ٢٠٠٢.

المسلم» بتاتاً عن هذه الموضوعات، كما لو أن المسألة المطروحة ليست هي معاداة السامية وإنما «الخطر الإسلامي» الذي يحلق فوق بلادنا. فمعاداة السامية تصبح عندهم ذريعة للخوض في موضوع آخر: الإسلام والصور «الضالة» له (الإسلاموية والأصولية). وهذا يؤكد أن خطابهم لا يندرج تحت تجديد التأمل في معاداة السامية ولا تحت إدانة التهيؤات التآمرية «الشهيرة» التي وصفناها سابقاً. كما أن غياب الضحايا اليهود كأطراف واضحة ومعروفة من كتاباتهم (ندرة الشواهد والوقائع في الحياة اليومية) لا يحول بين هؤلاء المؤلفين واللجوء إلى تنافس في العزف على وتر من هم الضحايا، وذلك بشكل يسلب المسلمين أدنى حق في أن يقولوا إنهم «ضحايا للعنصرية»؛ فقد يكونون هم، في حقيقة الأمر من يضطهدون الآخر. فالرهان الأساسي هو إذن الإبقاء على مشروعية وضع «الضحية القديمة»:

«[...] يظهر اليهود وقد جردوا من رمز هويتهم التاريخية ومن الشاهد على معاناتهم القديمة في معاداة السامية. فتاريخهم الخاص لا يستدعى الآن إلا مقروناً بالمهاجرين. إنهم يفقدون وضعهم المعنوي الذي أكسبهم إياه الماضي. فالمحرقة لا تثار من الآن فصاعداً إلا من أجل قضية العرب-المسلمين «المستعمرين» (les colonisés)»[1].

---

(١) ش. تريجانو (Shmuel TRIGANO)، تراجع الجمهورية (La Démission de la Républ - que)، مرجع سابق، ص. ٢٣.

وما يبدو مؤشراً واضحاً لهذا الميل نحو الإدانة أكثر منه نحو تحليل ظاهرة «المعاداة الجديدة للسامية» هو ضعف المعطيات التجريبية ونتائج البحث الميداني[1]: إن المكانة العلمية للبعض (أساتذة الجامعات)، ومحاباة الجماعة للبعض الآخر (المسؤولين في المنظمات اليهودية) وأيضاً وضعية المفكرين الممنوحة للبعض (الفلاسفة الجدد)، كل هذا يظهر كضامن يؤخذ به لمصداقية عرض الموضوع. وهو أن فرنسا الجمهورية مريضة بسبب مسلميها [الذين زاد عددهم فوق عتبة التحمل] وبسبب «شبابها من أصول مغاربية» الذي صاغته التيارات الإرهابية الإسلامية: فالمواطن الشريف عليه أن يتمسك بهذه الأكيدة التي لا مراء فيها. ولا مجال هنا للنقد، ولا للبحث في غموض فكرة «المعاداة الجديدة للسامية» فأصحابها يرجعون كثيراً إلى «الابتزاز بفكرة معاداة السامية»، كما وضح ذلك روني برومان (Rony Brauman) بشأن الفيلم الوثائقي «فك الطلاسم» (Décryptage)[2]. والشك أو الحذر هنا يوضعان بشكل منتظم في خانة التعاطف مع الذين يحرقون معابد اليهود، وفي خانة الاعتراض على المواقف الشجاعة التي يجب اتخاذها:

---

(١) ملاحظة نتفق فيها مع فيليب كوركوف، مقال سابق. و رينيه منزات (René MONZAT)، «أي ذبابة إذن قرصت تاجييف؟» (Quelle mouche a donc piqué Taguieff ?)، صحيفة (Ras l›front)، عدد ٨٧، ٢٠٠٢.

(٢) «إن خطاب الشك الذي تستخدمه المؤسسات اليهودية يذكر بالوقت الذي كانت فيه أي انتقادات للاتحاد السوفييتي (موطن اللافاشية) تعتبر مؤيدة «للفاشية» أو «للهتلرية-التروتسكية». عوضاً عن مناقشة الوقائع، نجرد من ينقلها من المصداقية (...)»، مقابلة، صحيفة (Libération)، ٥ فبراير ٢٠٠٣.

«لأن فرنسا الجمهورية تتردد في الإعلان عن الاعتراف بفشلها في استيعاب الشباب ذي الأصول المغاربية في المدرسة وفي المجتمع [...] فإنه لا يسرني أن ألوذ بالصمت، وأن أعمل كمن لا يرى الكتابات على الجدران، ومن لا يسمع الإساءات الموجهة لليهود، وكمن لا يخاف على الأطفال وهم في طريقهم لمدارسهم، أو كمن لا يخاف على أولئك الذين يرتادون المعابد [...]. ولا يهمني أن يكون الخطر الوشيك قد يأتي من اليمين المتطرف التقليدي، أو من بعض المتعصبين الإسلامويين، أو من بعض الأفراد المعزولين الذين يسمونهم- في استحياء- المشاغبين من شباب الضواحي»[١].

إن حماة أطروحة «المخاوف الجديدة من اليهودية» يتحفظون بالطبع في لغتهم تجنباً لإدراج كل مسلمي فرنسا داخل فئة «الإرهاب-الإسلامي». فعرضهم لأفكارهم يرتكز في الغالب على تمثيل ثنائي للإسلام في فرنسا، «المعتدلين» المنفتحين على الحوار من جانب، و«المتعصبين» الحالمين بإكمال الإبادة الجماعية التي بدأها النازي من جانب آخر. لكن المعتدلين يقدمون عادة كأقلية آيلة للانقراض، كفصيلة مهددة وقابلة لحد كبير لأن تميل يوما ما نحو معسكر المتعصبين. فهذا هو تحديداً المستوى الذي يمكن أن نفهم فيه بدقة الانحراف الجوهري لأطروحة «المخاوف الجديدة

(١) ر. كوكيرمان (R. CUKIERMAN)، خطورة مالا يعجب (Au risque de déplaire)، صحيفة (Le Monde)، ١١ فبراير، ٢٠٠٢.

من الإسـلام» : إنها ترفض أن تنسب للإسلام القدرة على تحديث ذاته، إذ تترصـده دوماً الراديكالية التي تشـكل عنصره «الشـرير المتقد داخله». فعند المدافعين عن نظرية «المخاوف الجديدة من اليهودية» يعتبر «الإسـلام ديانة غامضة تماماً» يبدو فيها الإصلاح ضرباً من الأوهام:

«إن مـا يسـتدعي الحذر ويثير القلق الشـديد هو تعـدد مواقع الالتباس حيـث لا يمكـن تحديد الفواصل بين الإسـلام و الإسـلاموية. فهذه المواقع تكـون أيضاً منطقة يحدث فيهـا التأرجح، وداخلها تترجم المعتقدات في شـكل حركة تعبئة باتجاه العنف، أو الأعمال الإرهابية. وهنا نرى خاصية بينة للإسلام المعاصر»[١].

مسـلمون معتدلون لا يملكون غير الوقوف في وجه التعصب أو الارتماء في حضن الإسلاموية ؟ إن طرح المسألة هكذا يؤدي إلى القبول بمشروعية فكـرة أخرى مـن الأفكار المسـلم بها والموروثة مباشـرة من الاستشـراق ومـن الخيال الاسـتعماري للقرن التاسـع عشـر : فكرة عـدم التوافق بين الإسـلام ومبـدأ المواطنة العامة. فمسـلمو فرنسـا الذيـن يحركهم مبدأ «الأمة الإسـلامية»[٢] لا يمكن أن يصبحـوا مواطنين حقيقيين ما لم يتخلوا عـن خصوصيتهـم الدينية، وهذا هو المنطق الذي يذّكر «بشـكل غريب» بمـا كان يدور مـن جدال أيام الجزائر الفرنسـية فيما يتعلـق بالتخلي عن

---

(١) ب.ا. تاجييـف (P.-A. TAGUIEFF)، المخاوف الجديدة مـن اليهودية (La Nouvelle Judé- phobie)، مرجع سابق، ص. ١٦٠.

(٢) «الأمة» تشير هنا إلى الأمة الإسلامية العالمية.

الوضعية الخاصة كشرط للوصول إلى حق المواطنة:

«لأن سؤالاً آخر، أكثر وضوحا وشمولاً، يطرح الآن: أيمكن أن تقبل مجموعة عربية تعتنق الإسلام أن تعيش تحت مواطنة أخرى، مع احترام الحقوق المرتبطة بها، أم أنها، تبعاً لطبيعتها أو لالتزامها، تجد نفسها بطريقة أو بأخرى مضطرة لتحقيق هيمنتها، ولأن تسعى للاستحواذ على السلطة حتى تستعيد- طال الزمن أم قصر- ارتباطها «بالأمة الإسلامية» الواحدة وأن تحكم بالشريعة، أي القانون القرآني؟»[1].

على الرغم من أنها تطرح في صيغة استفهامية، إلا أن فرضية «انعدام المواطنة» لدى السكان العرب-المسلمين هذه تتكرر كثيراً في كتابات منظري «المخاوف الجديدة من الإسلام»، وفي ما يشبه الوسواس. وهنا يجب التأكيد أن ب.أ. تاجييف أقل صراحة في تحليلاته من ر. دراي، مع أنه يشك مثله في قدرة الإسلام على إصلاح ذاته بالمعنى الحقيقي: «فهذا الإسلام ذو المسحة الغربية والوجه العلماني الذي يحترم الحريات الفردية (الحرية الدينية خصوصاً) والذي يقبل ممارسة النقد المنطقي، أي الإسلام المحرر من المظاهر المزعجة، لا وجود له بهذا الفهم إلا كمشروع من إنتاج خيال المفكرين المسلمين الإصلاحيين، ولا وجود له إلا بشكل ضبابي في ذهن بعض الاختصاصيين الذين يطنبون في الدفاع عن الإسلام، وفي ذهن

(١) ر. دراي (R. DRAÏ)، تحت شارة صهيون. المعادة الجديدة للسامية قد وصلت (Sous le signe de Sion. L'antisémitisme nouveau est arrivé)، مرجع سابق، ص. ١٩١.

من سار على دربهم من الصحفيين الذين يحرصون على مراعاة مشاعر قرائهم والسياسيين الذين يحرصون على مراعاة مشاعر ناخبيهم»[1].

وبعض الكتّاب مثل ش. تريجانو لا يترددون في اجتياز عتبة التحفظ، فيوجهون صوب الفرنسيين ذوي الثقافة الإسلامية اتهاماً مباشراً بالتشكيك في فرنسيتهم:

«كيف يمكن أن نقارن كذلك، على الصعيد الثقافي، بين الثقافة اليهودية-الفرنسية الرائعة التي أعطت منذ قرنين من الزمان أعمالاً تشكل جزءًا من الإرث القومي المشترك، وبين الثقافة العربية-الإسلامية التي تنمو بلا شك، ولكنها ما تزال في رحم الغيب؟»

وخلف هذه الشكوك التي تنزلق أحياناً نحو الاتهام بازدواجية الولاء (هل يمكن أن يلزم المسلمون فعلاً بالمواطنة؟) تشير أصابع الاتهام إلى محاسبة أصبحت ذات طابع عقدي للنخبة (سياسيين، وسائل إعلام، أساتذة جامعات...) ولفكرة التعددية الثقافية «على الطريقة الفرنسية»، فكلا طرفي الاتهام يساعدان في تمكين فكرة التجمع الإسلامي وإضفاء المشروعية عليه.

(١) ب.أ. تاجييف (P.-A. TAGUIEFF)، المخاوف الجديدة من اليهودية (La Nouvelle Judé-phobie)، مرجع سابق، ص. ٦٧.

إدانة ذات طابع جماهيري:

نخب الجمهورية متواطئون مع المسلمين ذوي المخاوف من اليهود

مــن خلال موضوعات تتنــاول «تراجع» أو «تفهم» النخبة الســائدة في مواجهة تجــدد الأفعال المعادية للســامية، فإن منظــري «المخاوف الجديدة مــن اليهودية» يســتفيدون لتصفية حســاباتهم مع التعــدد الثقافي «على الطريقة الفرنســية»، ومع كل ضروب التمايز التي يشــجعها في نظرهم بشــكل مباشــر «كبار المفكرين»، مخاطرين بذلــك بالترابط الوطني. إذ يصبح المجتمع الفرنســي بهذا مفتوحاً أمام شــكل من أشــكال «البلقنة» االداخليــة نتيجــة للهجــرة (الزائدة عــن الحد) للعرب-المســلمين. ففي محاذاة النظرة المدمرة لما يعتبر (أســلمة العالم) يظهر إذن تصوير كارثي للنظام الاجتماعي (خلق تجمعات في الفضاء العام يستفيد منها العرب-المسلمون فقط):

«لأن الطبقــة السياســية لم تكن لديها الشــجاعة لأن تحتضن بنفســها المســألة، ولأن الطبقة المثقفة جانبها الصــواب في معركتها، فلم يقدم أي مقتــرح للحل. بل لم تثر المســألة، مما جعل اللغة الجديدة عما هو «صائب سياســياً» تأخــذ في الازدهار. فصــار ممنوعاً -خوفاً مــن تهمة العنصرية- تحديد الاضطــراب الاجتماعي الذي ينتج من هــذه الهجرة [...]. وهذا باختصــار يقود للقول بأن «التمييز الإيجابي» الذي طبق لمصلحة المجتمع

العربي-الإسلامي، يحمي أعضاء هذا المجتمع (أقلية) ممن يأخذون القانون في أيديهم [...]»[1].

وهنا أيضاً لا يستند هذا الرأي التحذيري على تحليل للسياسات العامة المتعلقة بالهجرة، ولا على دراسة دقيقة للنتائج السالبة المحتملة للوسائل المستخدمة في الدمج، ولكنه يقوم فقط على الإدانة (إنه خطأ النخبة)، إذ تعتبر قوة نفوذ الكتاب بوصفهم مثقفين أو انتماءهم لجماعة ما، هما اللذان يسندان أحكامهم.

كذلك فإن معاداة النخبة هذه، التي تصاحبها، معاداة مبطنة للمفكرين («المغفلين النافعين، «اليساريين الجدد في حقل العلوم الاجتماعية»[2] ليست ذات بعد عام فقط: إنها تهاجم في المقام الأول أوساط اليسار واليسار المتطرف التي تصنف في المعسكر المدمر للقيم العليا للجمهورية. وهنا نرى المخاوف من الإسلام التي تكمن في هذه الكتابات تأتلف تلقائياً مع شكل صارخ «للمخاوف من الكوارث» وتنتقل بين الناس تهيؤات تآمرية ذات وجه جديد، هي المؤامرة اليسارية الإسلامية على

(1) ش. تريجانو (S. TRIGANO)، «انحراف التمييز الإيجابي» (- Déroute de la «discrimin tion positive» à la française)، صحيفة (Le Figaro)، 21 فبراير 2002.

(2) عبارة استخدمها تاجييف عند حديثه عن المفكرين الفرنسيين والبريطانيين الذين يصنفهم في خانة «محبي الإسلام»، كتاب المخاوف الجديدة من اليهودية (La Nouvelle Judéophobie)، مرجع سابق، ص. 139-149.

الجمهورية[1]:

«إن اليساريين من حماة البيئة (trotsko-écolos) أو من المدافعين عن قضايا العالم الثالث، أو من أي نوع كانوا، ينتهجون سلوكاً يقود من معاداة أمريكا أو معاداة العولمة، إلى معاداة السامية [...]. ولا يهم من أين يكون الانطلاق، أو أين تكون نقطة الوصول؛ معاداة للسامية مطبوخة على الطريقة الفرنسية، أم على الطريقة المغاربية (أو حتى حبوب ذرة معدلة وراثيا، فماذا يفعل جوزيه بوفيه (José Bové) في رام الله؟). فالكل يستعير نهجه من الكل. وقد رأينا ذلك بوضوح في ديربان (Durban)، كما يشير إليه بالضبط جاك دارمون (Jacques Daromn) في الفصل الأخير من كتابه الذي صدر مؤخراً تحت عنوان «إخفاقات الفكر السحري» [...] (Les infortunes de la pensée magique). (والذي لم ينتبه له أحد بالتأكيد). فالاتحاد اليساري-الإسلامي هو نتيجة لالتقاء العرض والطلب»[2].

---

(١) للاطلاع على نقد الفكر الجمهوري المتشدد، انظر هوغو جالون (Hugues JALLON)، وبيير مونييه (Pierre MOUNIER)، المولعون بالجمهورية، (Les Enragés de la République)، مرجع سابق.

(٢) باتريك غوردون (Patrick GORDON)، «من هو المعادي للسامية في فرنسا؟» (Qui est ant-sémite en France?)، موقع (Réinfo-Israël.com) ٧ يناير ٢٠٠٣. وراجع أيضاً أ. دل فال (A. DEL VALLE) و م. كنوبل (M. KNOBEL)، «توافق الشموليات. عندما يطغى المحور الأحمر-البني-الأخضر على النقاش الثقافي والسياسي» (La convergence des totalitarismes. Quand un axe rouge-brun-vert imprègne le débat intellectuel et politique)، صحيفة (Le Figaro)، ٢٢ ابريل ٢٠٠٢.

ويدخل أيضا في جماعة المتهمين من قبل المنظرين للمعاداة الجديدة للسامية، النخبة الفرنسية من ذوي الثقافة اليهودية، الذين تنكروا، بسبب ضعفهم أو تملقهم للجماهير، «لجماعتهم الأصلية»، منمين بذلك في داخلهم «كراهية للذات»؛ أي تنكر للهوية الخاصة على نهج إسرائيليي القرن التاسع عشر الذين كانوا يبحثون عن استيعابهم بكل السبل:

«هؤلاء، بصفة عامة، يعبرون عن الجو الخانق من العداء الذي يخيم على المجتمع اليهودي بتوجيهه نحو ذواتهم. واتهامهم لذويهم يجعلهم يتوهمون تخفيف عبء الضيق الذي يحسونه. وذلك من خلال تبني الاعتقاد بأن هناك شيئاً ما في الاتهام الموجه نحو جماعتهم. وعليه فالعداء تجاههم ليس هو بالغموض ولا باللاعقلانية التي يظهر بها. وبالتضحية لتجنب نتائج إخفاق ما، فإنهم يمنحون ذواتهم اعتقادا بأنهم لا يزالون من ضمن «الناس الخيرين»، وأنه لا تزال هناك بقية من الأخلاق. وهذه الأخلاق ليست شيئاً سوى أن يحطم اليهود ذواتهم (خلق عال بالتأكيد!) أمام الذين يهزؤون بهم في المعسكر المضاد، وهي شكل لا سابق له من أشكال النقد الذاتي»[1].

---

(١) ش. تريجانو (Shmuel TRIGANO)، تراجع الجمهورية. (- La Démission de la Rép blique)، مرجع سابق، ص. ٨٠.

وفــي آخــر هــذه القائمة من مدمــري الجمهورية يظهر اليســاريون من المســيحيين، ســواء كانوا من الكاثوليك أم من البروتستانت «المسكونين لدرجــة الهــوس بصــورة المســيح»[١]، والمنظمــات الإعلاميــة المناهضــة للعنصريــة (فهــي كمــا يراها تاجييــف متواطئــة بصمتها[٢] ثــم علماء الاجتمــاع، والنخــب الحزبيــة «التــي توصف بأنهــا ذات توجه سياســي صائب». وخلاصة القول، هي أن اليســار الفرنســي بصمته، وبسماحته تجاه «الشــباب المســلم الجانح» يصبح الآن أحد المســؤولين الأساسيين عن معاداة السامية في الألفية الثالثة، التي تضرب بعنف في وطننا، وتساهم بذلك فــي إضعاف النظــام الاجتماعي العام: وهكذا تكــون قد اكتملت الحلقات.

وماذا لو لم تكن إدانة معاداة السامية إلا مجرد ذريعة؟ إن هذا ليس محض افتــراض. فآخر ما توصلنا إليه هو: أن المكتوب عن «المخاوف الجديدة من اليهودية» يتحدث تقريبا عن كل شــيء إلا عن الطرق التي تعمل بها هذه

(١) ر. دراي (R. DRAÏ)، تحت شارة صهيون (Sous le signe de Sion.)، مرجع سابق، ص. ٨٤.

(٢) «انظــروا صمــت محترفــي معــاداة العنصرية تجــاه الاعتــداءات المعادية للســامية من قبل الشــباب ذوي الأصــول المغاربية الذين يقلــدون الانتفاضة فــي فرنســا» (Regardez le silence des professionnels de l›antiracisme face aux agressions antisémites commises par des jeunes d›origine m - ghrébine qui rejouent l›Intifada en France)، ب.أ. تاجييــف (P.-A. TAGUIEFF)، مجلــة (Le Nouvel Observateur)، ٢٤ يناير ٢٠٠٢.

المعـاداة للسـامية ذاتها : فاليهود الضحايا شـبه غائبين هنـا «والجلادون» حصروا في رمز جوهراني يمثله «الشباب المسلم في الضواحي». وموضوع هذه المعاداة للسـامية ليس فهم المنطـق الذي يغذي الكراهية تجاه اليهود، سـواء كان ذلك لدى المسـلمين، أم المسـيحيين، أو غيرهم (وهي كراهية حقيقيـة ومزعجة)، ولكـن الموضوع هو إدانة أسـلمة العالم التي تزحف فـي كل اتجاه، ولا تسـتثنى فرنسـا. والأسـوأ فـي ذلك أن فرنسـا تقارن أحياناً بألمانيا في فترة ما بين الحربين : يحل الشـباب المغاربي الجانح مكان فـرق النازي الهجومية، وتحل انتفاضة المسـاجد والضواحـي مكان «ليلة الكريسـتال»[1]. إن معاداة السـامية فـي الوقت الراهن تقـدم على أنها ظاهرة مسـتحدثة من حيث حجمها وتشددها، وذلك لأنها «تأسلمت». وبالاختصـار، إذا أخذنـا منطق منظري «المخاوف الجديـدة من اليهودية» من آخـره، فإن معاداة السـامية لدى اليمين المتطرف تبـدو «ناعمة» ومن «مخلفات الماضي» مقارنة بمعاداة السـامية عند العرب المسلمين : «ولأنهم لـم يتمكنوا من رسـم فرنسـا وهـي ترتدي بزة فيشـي[2]، فـإن البعض انحرف بالاتجاه صوب الشـباب المغاربي [...]»، كما يبين ذلك دومنيك

(١) دومينيك فيدال (Dominique VIDAL)، التململ اليهودي. بين الانكفاء والاستيعاب والاستخدام (Le Mal-être juif. Entre repli, assimilation et manipulations)، مرجع سابق، ص. ٩١-٩٨.

(٢) إشارة إلى حكومة فيشي الموالية للنازية أثناء احتلال ألمانيا لفرنسا. (المترجمان).

فيدال- ناكيه (Pierre Vidal-Naquet) في نقده للسعي «لتحويل» بعض قادة الفكر ممن ينحدرون من المجتمع اليهودي إلى «اليمين»[1]. فالهوس الذي يتملك البعض فيما يتعلق بكراهيتهم للإسلام يقودهم أيضاً لإخفاء المبادرات المتعددة التي تقوم بها التنظيمات الإسلامية في فرنسا من أجل التحوط، ومن أجل مكافحة معاداة السامية لدى بعض «شباب الضواحي»، كما لو أن «صمت» هذه التنظيمات يعطي الغطاء لسلوك أولئك الشباب[2]. وهنا يظهر لنا مكمن الخبث المدثر بالثقافة عند بعض الكتاب: فإلى جانب ضعف التحليل المبني على التجربة (لا وجود البتة لأي استقصاء عملي ميداني)، فإن صبغة المخاوف من الإسلام في عرضهم للموضوع تقترن بشكل من أشكال «المراجعة» (révisionnisme) بالمعنى الذي أعطاه إياه بيير فيدال- ناكيه:

«سريعاً، تتحول الإبادة الجماعية لليهود من حقيقة تاريخية معيشة إلى أداة معتادة تستدعى لإضفاء المشروعية السياسية في سبيل كسب انتماء

---

(١) المرجع السابق، ص. ٩٤.

(٢) يمكن هنا الإشارة إلى المبادرة الجماعية من قبل الشباب الفرنسي المسلم، الذين كتبوا نداءً يدين صراحة تجدد الأفعال المعادية في فرنسا. ومن الموقعين ناشطين مثل يامين مكري (ليون)، وعلي راحني (روبي)، وفؤاد اماري (سان دوني)، وزبير داود (نيم)، مذكور في إكزافييه تيرنيزيان (Xavier TERNISIEN)، صحيفة (Le Monde)، ١٢ أبريل ٢٠٠٢. أنظر أيضا مواقف رجل الدين والفيلسوف المسلم طارق رمضان في صحيفة (Le Monde)، ٢٤ ديسمبر ٢٠٠١.

سياسي ما في البلد، كما تستخدم للتركيز على مأساة تشريد اليهود من أجل تهيئتهم للعودة لأرض المعاد، ودعم تغييرات السياسة الإسرائيلية بشكل أعمى»[١].

وبإصرارهم المستمر، وبكثير من الهوس، على إظهار «الخطر الإسلامي» ومسؤوليته شبه الكاملة في انتشار المعاداة الجديدة للسامية، فإن هؤلاء «المنظرين» ينتهون إلى ابتذال إبادة اليهود على يد النازي ومآسيها الحالية (معاداة السامية وإنكار المحرقة من قبل اليمين المتطرف)[٢]، كما لو أن مخاوف المسلمين من اليهود تساير ذات الخطة المرسومة لنفي الذاكرة والقضاء عليها: يالها من «تربية غريبة» فيما يتعلق بمعاداة السامية (ر. برومان)، تلك التي تتمثل في الاعتماد على تهيؤات تآمرية جديدة، متظاهرة بتحذير «المواطنين الذين تتلاعب بهم» نخبهم ووسائل إعلامهم، من مؤامرة إسلامية عالمية على الغرب.

(١) بيير فيدال-ناكيه (Pierre VIDAL-NAQUET)، قتلة الذاكرة (- Les Assassins de la m moire)، باريس، منشورات (La Découverte)، ١٩٨٧، ص. ١٣٠.

(٢) نونا ماير (Nonna MAYER)، «المعاداة الجديدة للسامية تشبه بصورة مخيفة للقديمة» (- Le No vel antisémitisme ressemble encore furieusement à l›ancien!)، مقال سابق.

الباب الرابع

مسلمون لديهم مخاوف من الإسلام

«هؤلاء الرجال والنساء الذين يظهرون فجأة على أنهم مسلمين، وكانوا بالأمس لا يرغبون في مجرد سماع هذه الصفة تطلق عليهم، أيودون حقاً أن يجعلونا نفهم أن الإسلام خطر على الجمهورية، وأنهم وحدهم القادرون على حمايتنا من هذا الخطر؟»

عمار ديب، صحيفة (Le Monde) ٢١ مايو ٢٠٠٣

إن المخاوف من الإسلام في وجهها الحديث تشكل ظاهرة في غاية التعقيد لا تنتشر من خلال عبارة صريحة (عنصرية معادية للإسلام) بقدر ما يتم تمريرها في لغة خفية تساهم في تشكيل خليط من الأفكار المسبقة والتلميحات المتعلقة بالإسلام والمسلمين. ويقوى هذا الوجه الخفي عندما نعرف أن هذه المخاوف لا يمكن اختزالها في تصور للنزاع الديني بين الغرب المسيحي والشرق المسلم: فباسم العلمانية التي تقدم نفسها كحداثية وذات توجه عالمي، يقوم بعض الناشطين بإدانة مخاطر أسلمة المجتمع الفرنسي، في ذات الوقت الذي يبرئون فيه أنفسهم من تبني خطاب معاد للدين ومن أن لهم مخاوف من الإسلام.

والأكثر بروزاً في هذه الظاهرة المعقدة من المخاوف المعاصرة من الإسلام، هو حقيقة أن الكتاب المسلمين أنفسهم يشجعونها أحياناً. أولئك الكتاب الذين يستخرجون من رؤية مزدوجة للإسلام مصدراً لإضفاء المشروعية، ولمنح براءة الاختراع «لعلمانية جمهورية» (laïcité républicaine).

ومن هنا تأتي قوة القبول، على الرغم من أن ذلك يثير الدهشة، بأنه يوجد الآن في المجتمع الفرنسي نوع من «المخاوف من الإسلام عند المسلمين» (islamophobie musulmane)، أو أنه، بعبارة أدق، يوجد لدى بعض الزعامات الإسلامية الإعلامية ميل لأن تقف إلى جانب توجهات نشطاء المخاوف من الإسلام من غير المسلمين. وهذا الميل لا يصدر من أناس لهم مخاوف من الإسلام بوصفهم كذلك، لأن هؤلاء يصرون على أنهم «مسلمون»، وإنما يصدر من أشخاص يمكن القول بأنهم مسهلون للمخاوف من الإسلام (facilitateurs d›islamophobie). وبتركيزهم الجزء الأهم من حجتهم على تصوير مانوي (manichéenne) للرهانات الحالية («المسلمون الليبراليون والمعتدلون» مهددون من قبل «الأشرار الأصوليين الملتحين»)، فإن هؤلاء الذين ينصبون أنفسهم ناطقين باسم الإسلام في فرنسا، يتحدثون عن مخاوف مبطنة من الإسلام تختفي غالباً وراء المخاوف من الإسلاموية (islamistophobie). فالإدانة المتكررة للتأثير القاتل للحركات الدينية بين شباب الضواحي تظهر عندهم كاستراتيجية هدفها عزل «منافسين مزعجين» يتهمونهم بأنهم إسلاميون أو أصوليون، في حين أن هؤلاء في أغلب الأحيان مجرد مؤمنين يمارسون عباداتهم ومرتبطين بالتنظيمات الكبرى في فرنسا مثل الفيدرالية الوطنية لمسلمي فرنسا واتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا.

من بين هؤلاء المسلمين الذين «يسهلون مهمة من يتبنون فكرة المخاوف من الإسلام» هناك ثلاثة لاعبين يظهرون بانتظام في المجال العام. أولهم اللاعبون السياسيون الذين يقومون بدور الخبراء في الشأن الإسلامي لدى

قيادات الأحزاب الفرنسية، أو لدى الجمعيات الوطنية مثل « مكافحة العنصرية»(SOS racisme) ؛ فهؤلاء قد حلوا نوعاً ما مكان «الجيل الثاني من مغاربيين تحت الطلب» في الثمانينيات من القرن الماضي، فأصبحوا «مسلمين تحت الطلب». ويأتي ثانيا اللاعبون في الحقل الثقافي الديني (خطباء المساجد، المفتون والأئمة) الذين هم في الغالب مرتبطون بالحكومة الجزائرية، ويستخدمون حجتهم بوصفهم مناهضين للإسلاموية من أجل فرض أنفسهم ممثلين شرعيين لإسلام «منفتح وليبرالي» لدى السلطات الفرنسية. أخيراً، هناك اللاعبون في الوسط الإعلامي، الذين يقفون منذ سنين خلف تسويق نوع جديد من صحافة البحث يحركه المثقفون الجزائريون الذين تحولوا لخبراء في شأن الشبكات «الإسلامية الإرهابية» في فرنسا والعالم.

ومن وراء هذه التعددية في المواقف والآراء، فإن هؤلاء المسلمين «المسهلين لفكرة المخاوف من الإسلام» يعملون على إيجاد التوافق بين المصالح المادية والمصالح الاعتبارية مما يقوي أكثر خطابهم العام. ومع كل فإن وضعهم داخل الفضاء العام يقوم على ازدواجية المواقف. إذ من ناحية وضعهم، فإن هؤلاء الزعماء في الوسط الإعلامي نادراً ما يحددون الموقع الذي يستمدون منه صلاحيتهم للتحدث «بوصفهم خبراء» في الشأن الإسلامي: هل يتحدثون بوصفهم نخبة بشكل عام، أم مسلمين ملتزمين تجاه جماعتهم؟ إنهم يلعبون بمهارة فائقة على هذه الازدواجية، واصفين أنفسهم في آن واحد بأنهم ينتمون لتنظيمات تعرف بأنها «عالمية» (أحزاب، نقابات، منظمات مناهضة للعنصرية...)، وأنه من المفترض

أن يكون لهم ارتباط بالأوساط الإسلامية.

إن خطاب هؤلاء الزعماء البارزين إعلامياً لا يحمل أبداً فكرة مخاوفهم من الإسلام بشكل صريح[1]، تاركاً كل أنواع الأفكار المسبقة والتهيؤات حول الإسلام في فرنسا معلقة. وبصورة عامة، فإن خطابهم عن «استعادة النظام» داخل المجتمع الفرنسي يتجه غالباً إلى الدولة وإلى المؤسسات الرسمية، أكثر مما يتجه نحو المسلمين الملتزمين. فهم بهذا لا يبحثون عن بناء قيادة تعمل وسط مجتمعهم، بافتراض أن لهم بعضاً من النفوذ بين المسلمين العاديين؛ وإنما لفرض أنفسهم وسطاء أو أشخاصا ذوي تأثير لهم صلاحية مناقشة القضايا الإسلامية: فخطابهم الكارثي حول أسلمة و«بنلادنية» (**benladenisation**) الضواحي يظهر وكأنه المبرر لوجودهم.

(١) بل إن مسجد باريس قد دخل طرفاً في محاكمة ميشيل هويلبيك (**Michel Houellebecq**)

بوجادية[1] الضواحي : السند العرقي للمخاوف من الإسلام

إن الخطاب الذي تفوح منه رائحة المخاوف من الإسلام لدى بعض النخب العلمانية ذات الثقافة الإسلامية ترجع أصوله إلى الثمانينيات من القرن الماضي، في داخل حركة الإحياء الأيديولوجي للنسيج التنظيمي الذي بدأ مع الهجرات المغاربية. ففي بحثهم عن الانعتاق من روح الأبوة الاجتماعية المسيحية التي كانت تتسم بها المنظمات الأولى للتضامن مع العمال المهاجرين، وخاصة فيما يتعلق «بالموجة الثانية» للمنظمات التي تنشط في تطوير مجتمع متعدد الثقافات (حق الاختلاف)، اختارت بعض النخب المغاربية من الجيل الثاني من المهاجرين تبني خطاب يقوم على تصور سمي بأنه «واقعي» للاندماج داخل «الجمهورية» (حق اللامبالاة): فالأمر بالنسبة لهذه النخب هو أن تدين في آن واحد خروج المنظمات الإسلامية الأولى في الضواحي عن الجادة (أخذ اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا، والفيدرالية الوطنية لمسلمي فرنسا ينفذان داخل المدن الشعبية)، والمزايدة التي تتخذ من التعدد الثقافي مطية، والتي تنتهجها الحركات القريبة من اليسار الداعم للعالم الثالث مثل (حركة «مناهضة العنصرية ومن أجل الصداقة بين الشعوب»، ومنظمة «مكافحة العنصرية»...) الداعمة لنوع

(١) البوجادية (Le poujadisme) هي حركة سياسية فرنسية أطلقها (بيير بوجاد) (Pierre Poujad) بداية الخمسينيات من القرن الماضي دفاعاً عن التجار والحرفيين. وهي حركة يمينية محافظة. (المترجمان).

من «الاندماج على الطريقة الفرنسية» والذي- تحت غطاء مفهوم جديد- يندرج أكثر في إطار استيعابي على طريقة الجمهورية الثالثة[١]. وأكثر المنظمات تمثيلاً لهذا التركيز على الخطاب المتعلق بالتجمعات الفئوية هي بلا شك فرانس بلس خلال السنوات (France-Plus ١٩٨٨-١٩٩٥)، والتي كانت بعض مواقفها الرسمية تشير من طرف خفي إلى مخاوف مبطنة من الإسلام: ففي موضوع الحجاب الإسلامي (١٩٨٩)، كما في مسألة المظاهرات ضد حرب الخليج الأولى (١٩٩٠-١٩٩١)، أدانت فرنس بلس، على لسان رئيسها في ذلك الحين أرزكي داهماني (Arezki Dahmani)، تأثير «اللوبي الإسلامي» وخطورة تجنيد شباب الضواحي لاعتناق المبادئ الدينية المتشددة. كما ساهمت هذه المؤسسة بشكل خاص في تعميم فكرة أن الشابات المحجبات قد وقعن تحت تأثير الحركات «الأصولية». وكان لهذا وقعه لدى السلطات الرسمية الفرنسية لكونه صادراً من شخصيات تنحدر من الهجرات المغاربية، وتعتبر بذلك ذات معرفة بالمسألة. ومن ذات المنطلق، دعا المكتب الوطني لهذه المؤسسة، في عام ١٩٩١، الشباب ذوي الأصول المغاربية لعدم التظاهر ضد حرب الخليج حتى لا يمنحوا المشروعية للتجاوزات ذات الطابع الخاص بالمجموعات

---

(١) حول خطاب التنشيط المنظماتي، انظر ف. جيسير (V. GEISSER)، العرقية الجمهورية (Ethn - cité républicaine)، مرجع سابق؛ دومينيك بيلي (Dominique BAILLET)، «الإندماج والنشاط السياسي. حالة الشباب من أصول مغاربية في فرنسا» (Intégration et militantisme. Le cas des jeunes d›origine maghrébine en France)، مجلة (Confluences Méditerranée)، عدد ٣٧، مارس ٢٠٠١.

العرقيـة التي تقيـم بالضواحي . وابتداء من عام ١٩٩٣ دعمت مؤسسـة فرانس بلس ، ودون تحفظ قوانين «باسكوا» (Pasqua)[١] وكذلك أيدت إعادة هيكلة قانون الجنسـية من أجل مراجعة جزئية لحق الأرض عند منح الجنسـية الفرنسـية . وقد تم في بوتقـة فرانس بلس إعـداد وكلاء النخبة السياسـية والتنظيمية من أمثال عزيز ساهري[٢]، وفريد سماحي[٣]، أو رشـيد كاسي[٤]، والذين ينصبون أنفسـهم اليوم حداة للخطاب المناهض للهجرة ، ومهاجمين عنيفين لشباب الضواحي الذين يرون أنه صار فريسة سـهلة للحركات الإسـلاموية . وحديثاً ، في مايـو ٢٠٠٣ كان العاملون السـابقون في فرانس بلس الملهمين الأساسـيين «لنـداء مايو» (L›appel de mai) الذي يهدف إلى «التحرك من أجل مقاومة كل أشكال الأصولية والظلاميـة [...]، والعمـل الجماعي من أجل تجديد للإسـلام عن طريق فتح نقاش عميق حول جوهره ، وملاءمته الضرورية للحاضر» (انظر نص النداء في الملحق)[٥] . ومن بين الأسـماء الثلاثة المذكورة سلفاً ، فإن رشيد كاسي (حزب التجمع من أجل حركة شعبية) قد يكون الأكثر استغلالا

---

(١) شـارل باسـكوا (Charles Pasqua) ، هـو وزيـر الداخليـة الفرنسـية فـي تلك الفتـرة والذي أصدر قوانـين عديـدة مناهضـة للمهاجرين ومنها عـدم النظر في حق الأرض عند منح الجنسـية الفرنسـية عند الولادة . (المترجمان) .

(٢) النائب السابق لعمدة جرونوبل (Grenoble) ١٩٨٩-١٩٩٥ .

(٣) المستشار الإقليمي للجبهة الوطنية في أيل دو فرانس (île-de-France) .

(٤) عضو حزب التجمع من أجل حركة شعبية (UMP) .

(٥) «نداء مايو» ، مجلة (Marianne) ، من ٥ إلى ١١ مايو ٢٠٠٣ .

لهـذه المخـاوف المبطنة من الإسـلام، في حـين أن فريد سـماهي (الجبهة الوطنيـة والمقرب من جان ماري لوبن Jean-Marie Le Pen) يلجأ أكثر، وفـي تناقض ظاهـر، إلى خطاب رنان مضـاد للمهاجريـن دون تمييز بين مسـلمين وغير مسلمين[1]. والآن حصل رشيد كاسي- في حقيقة الأمر- على مركز سياسـي وإعلامي يكسـبان مراميه مظهر المصداقية: فبما أنه يدعـى من وقـت لآخر لحلقات إذاعيـة وتلفزيونية تخصص للإسـلام في فرنسـا، فقـد ظهر بصورة جعلتـه يبدأ الاحتراف السياسـي داخل حزب التجمع من أجل حركة شـعبية ويصل لدرجة منافسـة آلن جوبيه (Alain Jupé)، مؤسـس الحزب، على الرئاسـة في نوفمبـر ٢٠٠٢. فهو يلعب على غموض موقفه تجاه دين أهله (مسـلم أم مجرد ابن لأسـرة مسلمة؟) لتقديم نفسه بكل أريحية «كخبير في الواقع المعيش» (expert du vécu) مسـتمداً قـوة تأثيره، في آن واحد، من تجربتـه «الحقيقية» على مقربة من شـباب الأحياء التي تتعاطف معه، ومن وضعـه الجديد كواحد من النخبة المتخصصة في قضايا الإسلام والإسلاموية.

إلـى جانب هـذا الغموض فـي موقفه بالنسـبة لدين أهله (الإسـلام)، يضاف غموض ثان يتعلق هذه المرة بنهجه «كمفكر»: إذ يفترض برشـيد كاسـي «الخبير فـي الواقع المعيـش» أن يتبنى موقفـاً نقدياً محايـداً فيما

(١) فريد سماهي (Farid SMAHI)، هل ينبغي حرق عرب فرنسا؟ منشورات (F.-X. de Guibert)، باريـس، ١٩٩٥؛ ولـذات المؤلف، رجل واحد صوت واحد. أحاديث رجل منتخب ضد الانقسـام الوطني، (Un homme une voix. Paroles d›un élu contre la fracture nationale)، منشـورات (O- jectif France)، باريس، ٢٠٠١.

يتعلق بالمشكلة الاجتماعية التي تسمى (أسلمة الضواحي). ولكن- وبالتحديد- فإن كونه ينتمي لأسرة مسلمة، وكونه يصر على أنه «مسلم» يعفيانه من هذه الضرورة الأخلاقية: إنه يستطيع أن يندفع في إدانة أسلمة الضواحي متحرراً من أي نوع من العقد، ومستخدما صوراً نمطيةً وعموميات مضللة. وبما أنه «مسلم» فإن آراءه وتحليلاته المزعومة تبدو مزينة بالصدقية والأصالة التي لا تحتاج لمراجعة أدلتها ووقائعها المقدمة. فرشيد كاسي، مثله في ذلك مثل آخرين من النخبة ذات المخاوف من الإسلام والمنحدرة من أصول مغاربية مهاجرة، يعد خبيرا ذا مصداقية لمجرد كونه مسلماً «متفتحاً ليبرالياً»[1] يزعم أن عنده الشجاعة لأن يحذر «المواطنين الفرنسيين الشرفاء» من خطر الإسلاموية في الضواحي، ومن أضرارها على التماسك الوطني. وبهذا فإنه يستطيع مشاركة الخبير الأمني ألكسندر دل فال النص التالي:

«هناك سؤال يطرح نفسه لكل مؤمن بالجمهورية سواء أكان مسيحياً، يهودياً، «ملحداً»، أم مسلماً: عندما يتم الاعتراف بمنظمات «إسلاموية معتدلة» كجهات رسمية يمكن مخاطبتها، وخارجة من عباءة الإخوان المسلمين - مثل اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا- أو جماعة التبليغ (فرقة أصولية متشددة جداً تنتمي للفكر الذي تتبناه طالبان)، فهل هناك وعي بأن هذه المنظمات تعمل بوصفها حلفاء موضوعيين للشمولية

---

(١) شكل رشيد كاسي في ٧ نوفمبر ٢٠٠١ بمشاركة مفتي مرسيليا، صهيب بن شيخ، منظمة «الإسلام والحريات»؛ بهدف «إظهار حوار عميق عن الإسلام دون تحفظات أو أكاذيب، وبهذا يتم مقاومة الإسلاموية».

الإسلاموية وأنها تخون الديمقراطية كما تخون المسلمين الليبراليين الذين يمثلون أول ضحايا «الفاشية الخضراء»؟[1] وإذا كانت هذه المنظمات تعلن أنها «سلمية» هنا في فرنسا، فإنها تساند الجهاد في أماكن أخرى، وتتحمس لحجاب المرأة ومنع اندماج العرب المغاربة «المهددين» بخطر القيم «اللادينية»[2].

لذا فإن رائحة المخاوف من الإسلام التي تفوح من قبل هؤلاء القادة الذين ينتمون لحركة الفرنسيين العرب المغاربة في ثمانينيات القرن الماضي، لا يمكن فصلها من وجهة نظر اجتماعية عن مسيرة التطور العام: وهذه تتمثل في عملية تحول أيديولوجي إلى «اليمين» مست بعض النخب الفرنسية من ذوي الجذور المغاربية التي خذلها «المشروع الكبير» للتعدد الثقافي الذي تبناه اليسار الاشتراكي (١٩٨١-١٩٨٨). وهذا التوجه إلى اليمين، كما شهدناه لدى المؤسسة الإعلامية فرانس بلس، يرجع لبداية التسعينيات عند انضمام بعض قادة المنظمات المجتمعية لأطروحات شارل باسكوا الأمنية السيادية، وما المخاوف المبطنة من الإسلام هنا- في نهاية المطاف- سوى «أحد أبعاد» هذه الأطروحات اليمينية «الجانحة عن الجادة». وهكذا فإن خطاب رشيد كاسي ورفاقه السياسيين[3] يحمل كل

---

(١) اللون الأخضر يرمز بالطبع للإسلام الذي يعرف أيضا بالخطر الأخضر، كما يشير إلى ذلك المؤلف في السطور القادمة. (المترجمان).

(٢) «لماذا التعامل مع الأصوليين؟»، صحيفة (Le Figaro)، ٢٢ أغسطس ٢٠٠٢.

(٣) تحالف رشيد كاسي مع الخبير في الإسلاموية، الخارج من عباءة اليمين المتطرف، ألكسندر دل فال من أجل ترشح الأول لرئاسة حزب التجمع من أجل حركة شعبية (UMP) في نوفمبر ٢٠٠٠.

مكونات «بوجادية» جديدة في الضواحي. : مناهضة سياسة الضرائب، ومحاربة البيروقراطية، وإدانة النتائج السيئة لأفكار ما بعد ١٩٦٨ على الشباب الفرنسي، والنقد الراديكالي للتعدد الثقافي ولمبادئ حقوق الإنسان، والخطاب المشحون بالتهيؤات عن «الخطر الأخضر»،... إلخ:

«إن رسالة ٢١ أبريل واضحة. يريد الفرنسيون أن يحكمهم اليمين. إنهم يريدون استعادة سلطة الجمهورية في كل الميادين. إنهم يريدون الخروج من هذا التهاون والمبالغات في تبني أفكار ما بعد ١٩٦٨. إنهم يريدون فرض النظام في الأحياء [...]. إنهم يريدون أن تستعيد فرنسا عزتها وعزة قيمها وحضارتها وديمقراطيتها. إنهم يريدون فرنسا أن تقاوم وألا تضعف، ولا تتسم بالميوعة داخل ما هو صائب سياسياً، وداخل حقوق الإنسان التي تنتجها الصالونات، في الوقت الذي تتهدد فيه حضارتنا من قبل فاشية جديدة، هي الأصولية الإسلامية»[1].

ولكن هذه «البوجادية» في الضواحي لم تعد هامشية على المسرح السياسي، وتتجه اليوم لأن تلتقطها أيدي النخب التنظيمية التي تضع نفسها صراحة في خانة اليسار. وهذه حالة، الشخصية البارزة إعلامياً، مالك بوتيه (Malek Boutih)، الرئيس السابق لمنظمة «مكافحة العنصرية» وعضو المجلس القومي للحزب الاشتراكي، والذي يجتمع لديه، بصورة متناقضة جداً، خطاب تقليدي مضاد للعنصرية موروث من حركات المجتمع المدني مع لغة مواعظ أخلاقية، عندما يتحدث عن أضرار

(١) خطاب رشيد كاسي في المؤتمر التأسيسي لحزب التجمع من أجل حركة شعبية (UMP).

الانحرافات والأصولية في الضواحي، اللتين قد تكونان عنده أكثر خطراً من الجبهة الوطنية ذاتها[1]:

«إن الإسلامويين أكثر خطراً. إنهم فرحون بما حدث للوبن: فليذهب كل لبلده ونظامه الأخلاقي. يجب أن نكون جادين. عندما أرى منظمات تزعم أنها تقدم الدعم الدراسي في حين أنها لا ترمي من وراء ذلك سوى تنظيم بؤر أيديولوجية، وفرض الحجاب ومعاييرها الاجتماعية، فإني أعتقد أنه ربما قد حان الوقت لأن نكنس كل هذا. شخصياً، لا أريد منظمات إسلاموية في فرنسا حتى لو أنها اتخذت شكل المنظمات الثقافية أو الخيرية. فهم ينشرون الكراهية من خلف العمل الاجتماعي»[2].

إذن فقد حدث الآن تطور فكري كبير في الاتجاه الأمني واليميني فيما يخص مجموعة كبيرة من النخب العاملة في المنظمات وفي الحقل السياسي، والتي كانت في ظل الحكومات الاشتراكية تدافع بحماس عن التعدد الثقافي للدولة[3]. وقد كانت هذه النخب، حقيقة، المنتفع الأساسي من هذا فقد حصلت على الاعتبار الاجتماعي والدعم المادي.

---

(١) إن هذا الخليط من التناقض هو الذي يفسر، كما نعتقد، نجاح خطاب مالك بوتيه في أوساط حزب التجمع من أجل حركة شعبية والقيادات الحكومية. ارجع لمقال كريستوف ديلوار (Christophe DELOIRE)، «مالك بوتيه، فرنسي مغاربي ذو تأثير» (Malek Boutih. Un beur d›influence)، مجلة (Le point)، ١٣ سبتمبر ٢٠٠٢؛ وكذلك سولن دو روبير (Solenn de ROYER)، «الحكومة تنصت لمالك بوتيه» (Malek Boutih a l›oreille du gouvernement)، صحيفة (La Croix)، ٢١ نوفمبر ٢٠٠٢.

(٢) مالك بوتيه، مقابلة في مجلة (L›Express)، ٩ مايو ٢٠٠٢.

(٣) ف. جيسير (V. GEISSER)، العرقية الجمهورية (Ethnicité républicaine)، مرجع سابق.

ولكن هذا التركيز الأمني يرتبط بقوة «بحرب المواقع» داخل الحقل الثقافي والسياسي الذي يحتدم فيه التنافس. وطموح القادة المنحدرين من أصول مغاربية تتمثل في جعل المخاوف المبطنة من الإسلام أداة تتيح لهم تثبيت وضعهم «بوصفهم ضمائر أخلاقية» لشباب يعاني من الضياع في الضواحي:

«والآن، إذا تركنا الوضع يسوء على أيدي أنصار الجبهة الوطنية أو متشددي الضواحي، فإن الناس من أمثالي لا مكان لهم في داخل الوطن. أريد شخصياً، الحديث باسم كل أولئك الذين لا يسمعهم أحد أبداً، والذين لا يحرقون السيارات أمام الكاميرات، والذين ينادون بأن يتغير الحال. إن الخطأ كله يأتي من كون أننا جعلنا من الحرية سلعة للاستهلاك»[1].

هذه الرغبة في احتكار الخطاب المشروع فيما يتعلق «بإسلام الضواحي» تلتقي كثيراً- إن لم تكن تماثلها بشكل صارخ- مع تلك التي تبثها بعض النخب الدينية التي يقال عنها «مستنيرة»، والتي تعمل هي أيضاً في حقل يجري فيه تنافس عنيف، وهو: تمثيل الدين الإسلامي في فرنسا.

---

(١) م. بوتيه (M. BOUTIH)، مجلة (LظExpress)، مقال سبق ذكره.

كلهم أصوليون إلا أنا أو كيف تظهر متدينا مستنيرا في مواجهة الحشود الإسلاموية

من بين كل النخب التي ذكرنا، فإن الناشطين في الحقل الديني هم الأكثر وضوحا فيما يتعلق بالرهان على السلطة في إطار مؤسساتي: فإنشاء إسلام فرنسي برعاية وزارة الداخلية[1] قاد إلى مزايدة أيديولوجية حول ما يجب أن يكون عليه «الممثلون المناسبون للمسلمين». وفي اللهاث وراء الزعامة الثقافية للمجتمع المسلم في فرنسا، حاولت بعض النخب الدينية، ممن يرتبطون عادة بالدولة الجزائرية، أو ببعض جماعة السلطة، من أمثال دليل بو بكر وصهيب بن شيخ استخدام خطر الأصولية للظهور بوصفهم مرجعيات وحيدة ممكنة أمام السلطة الفرنسية. والأول هو إمام وخطيب مسجد باريس الكبير منذ ١٩٨٨، وهو معين ويتقاضى مرتبه من الدولة الجزائرية، وقد «انتخب» رئيسا للمجلس الفرنسي للدين الإسلامي (CFCM) في ربيع ٢٠٠٣، وكان في حقيقة الأمر قد تم تنصيبه على رأس هذا المجلس قبل ظهور نتائج الانتخابات، إذ مارست الحكومة الجزائرية ضغطاً كبيراً على الإليزيه وعلى وزارة الداخلية لوضعه في هذا المكان. أما الرجل الثاني، فهو مفتي مدينة مرسيليا، وابن إمام وخطيب مسجد

(١) نشير هنا إلى عملية سميت «باستشارة» كان قد طرحها جان-بيير شوفنمان (Jean-Pierre Ch – vènement) في أكتوبر ١٩٩٩ وقادت في إبريل ٢٠٠٣ لانتخاب المجلس الفرنسي للدين الإسلامي CFCM الذي تمثل النخبة الموالية للحكومة الجزائرية فيه أقلية ضئيلة جداً.

باريس سابقاً الشيخ عباس الذي توفي عام ١٩٨٨ . وليس لصهيب بن شيخ أي قاعدة دينية في مدينة مرسيليا ، غير أنه معروف بشكل خاص عن طريق مواقفه المتعددة التي يعلنها على وسائل الإعلام .

إن تصورهما الثنائي عن الإسلام في فرنسا «مسلمون معتدلون» و «أصوليون خطيرون» ليس فقط وسيلة استراتيجية . إنه يصدر أيضا ، ولدرجة كبيرة ، من مفهوم سلطوي مستورد من الجزائر ، ويتسق مع فكرة أن الإسلام ذا الصبغة الشعبية أو الجماهيرية هو في الأساس «سيئ» و «متخلف» . وعليه فالأنسب هو وضعه تحت رعاية النخب المستنيرة . وبهذه الصفة فإن الرؤية التي تحط من قدر «إسلام الضواحي» هي إسقاط لرؤية مستوردة من الوطن الأصل (الجزائر ، المغرب ، تونس) إلى داخل الحوار الفرنسي-الفرنسي ، وترمي النخب الدينية التي تسمى «ليبرالية ومعتدلة» ، من خلال هذه الرؤية ، إلى تحذير السلطات الرسمية من الأشكال التي يتخذها انحراف الجماهير عن الجادة . وفي هذا يؤكد دليل بو بكر أن «إسلام الضواحي هو إسلام المحرضين . وأن أعداد الشباب الذين يغادرون من المدن إلى بيشاور في تزايد . وأن هيرفي جمال لوازو (Hervé Djamel Loiseau) و بن سعيد ليسا مجرد تهيؤات . فالأصوليون يستغلون بطالة الشباب واضطراب حياتهم ، وانعدام الرؤية المستقبلية لاندماجهم في المجتمع . لقد تسلمت كتاباً بعنوان «ملعونة فرنسا» من أحد هؤلاء الشباب . إن الفشل الاجتماعي هو الذي يقود قبل كل شيء

إلى الأصولية»[١].

ومن فكرة وضع الإسلام في فرنسا تحت الرعاية، توصلت هذه النخب «المستنيرة» إلى أن تمنح المشروعية لنوع من الإدارة الأمنية للمجتمع الإسلامي، منادية بشكل صريح للتعاون مع الجهات الأمنية. كما لو أن كل مسلمي فرنسا غير ناضجين أو سذج يمكن أن يقعوا فريسة سهلة للمنظمات «الإسلامية الإرهابية»:

«أفضل أن يكون لدي التوجه لإخطار الاستخبارات العامة عندما يحدث شيء ما. ففي فرنسا لا يعرف المرء من أين يأتي معظم أئمة المساجد، فأي شخص يمكن أن يرتدي الجلابية. أما أنا فأعرف من هم الأئمة التابعون لي وأقوم بمراقبتهم»[٢].

إن المشكلة الكبرى التي تواجهها هذه النخب الدينية المقربة من الدولة الجزائرية بواسطة مسجد باريس، هي أنها لا تملك قاعدة اجتماعية داخل المجتمع الإسلامي في فرنسا: فقد أثبتت الانتخابات الأولى للمجلس الفرنسي للدين الإسلامي أنها منفصلة تماماً عن القاعدة (القوائم التي رعاها مسجد باريس الكبير حصلت على أقل من ٢٠٪ من الأصوات التي أدلى بها المندوبون المسلمون[٣]، بل إن هذه القاعدة أظهرت نوعاً من

(١) مقابلة في الصحيفة المجانية (Minutes 20)، ١٨ أكتوبر ٢٠٠٢.

(٢) مرجع سابق.

(٣) إكزافييه تيرنيزيان (Xavier TERNISIEN)، «هزيمة مسجد باريس في انتخابات المجلس الإسلامي» (Défaite pour la Mosquée de Paris au scrutin pour le Conseil musulman)، صحيفة (Le Monde)، ١٥ ابريل ٢٠٠٣.

عـدم الثقة تجاه هؤلاء النخب. ومن هنا خـرج الميل للتعويض، عن فقدان اعتراف الجماعة، باستخدام خطاب يظهر النخب ضحية ويتهم السلطات الفرنسـية، ويحثها علـى أن تتخذ موقفاً واضحاً بـين عملية انتخابية قد تفتح الأبواب «للأصوليين»، وبين آلية التعيين التي يمكن بها إنقاذ فرنسـا من «خطر التطرف»:

«منذ خروج شـوفنمان (Chevènement)، وأنا أخشى أن تكون وزارة الداخلية ترغب في ترك النصيب الأكبر من مشروعات التمثيل المستقبلي للمجتمع المسـلم في فرنسـا للجماعـات الموصومة بالإسـلاموية. فهذه الجماعـات ليسـت لها حرية فـي البلاد التي قدمت منهـا، ولكن تجد لها موطئ قدم في الشارع عندنا. إنني أود أن أقول للحكومة أن مشروعها قد يفرغ- دون قصد- الإسـلاموية من معناها الحقيقي أو أن يجعل للظلامية الدينية مشروعية وجود في فرنسا»[1].

إن المرء لا يسعه إلا أن يندهش من التشابه بين تشخيص هذه النخب فيما يتعلـق بالملف الداخلي الجزائري (التي هي ضـد العملية الانتخابية) وما يتعلق بملف الدين الإسـلامي في فرنسـا (انتقادها للتعددية التمثيلية). وبإدراكهم التام لهذا التشـابه فإن من يشكلون هذه النخب يلعبون عليه من أجل تسويق حجتهم لدى وزارة الداخلية الفرنسية.

(١) صهيـب بن الشـيخ (Soheïb BENCHEIKH) مقابلة مع هنري تينـك (Henri Tincq)، مجلة (Le Monde)، ٢٠ نوفمبر ٢٠٠١.

من الجزائر إلى باريس: معركة أيديولوجية يعاد استخدامها إعلامياً

إن خطاب النخب الدينية يلتقي- في حقيقة الأمر- مع كثير من النقاط التي يحويها خطاب «المثقفين الجدد» الجزائريين المقيمين في فرنسا. فمنذ بضع سنوات بدأنا نلاحظ تنامياً متزايداً للمقالات الافتتاحية في الصحف والكتب التي تهدف لإشاعة المعرفة حول الإسلام والإسلاموية، ومعظمها يصدر غالباً بأقلام «مثقفين» جزائريين منفيين في فرنسا. ومن أكثرهم انتشارا إعلامياً، يمكن أن نذكر الكاتبة لطيفة بن منصور[1]، الصحفيين حسان زيروقي[2] ومحمد صيفاوي[3]. ولأنهم في معظم الأحيان مرتبطون بأوساط اليسار الجزائري (حزب الطليعة الاشتراكي،

(١) لطيفة بن منصور (Latifa BEN MANSOUR)، الإخوان المسلمون، إخوان العنف. رحلة في جهنم الخطاب الإسلاموي (Frères musulmans, frères féroces. Voyage dans l›enfer du discours islamiste)، منشورات (Ramsay)، باريس، ٢٠٠٢.

(٢) حسان زيروقي (Hassane ZERROUKY)، السديم الإسلاموي في فرنسا والجزائر (La Néb- leuse islamiste en France et en Algérie)، الطبعة ١، باريس، ٢٠٠٢.

(٣) محمد صيفاوي (Mohamed SIFAOUI)، فرنسا المريضة بالإسلاموية (La France malade de l›islamisme)، منشورات (le cherche midi)، باريس، ٢٠٠٢؛ وله أيضاً كتاب: إخواني القتلة. كيف اخترقت إحدى خلايا القاعدة (Mes frères assassins. Comment j›ai infiltré une cellule d›Al-Qaïda) مرجع سابق.

اليسار المتطرف النقابي والحزبي)، أو مرتبطون بالدوائر الحكومية، أو بالاثنين معاً[١] فإنهم ينشدون تأسيس قوة وضعهم خبراء في شأن الإسلاموية من خلال تجربتهم الخاصة «كضحايا للإرهاب»، ويلجؤون للغة العواطف كقولهم «إن الغرب تركنا نعيش مأساتنا وحدنا من أجل المحافظة على مصالحة الاقتصادية والجيوبوليتيكية». وهم بهذا ينشرون في كتاباتهم شكلا من أشكال «الموجة الجديدة للتعاطف مع العالم الثالث» يلعب على تجريم الغرب فيما يتعلق بضحايا «الإرهاب الإسلامي»، تماماً كما كان أسلافهم قد لعبوا على إدانة فرنسا عن جرائمها خلال الحقبة الاستعمارية:

«قرر فرنسوا ميتران (François Mitterrand) إذن- دون الاعتراف بذلك- أن يمالئ الإسلامويين الجزائريين مبصراً فيهم- كما يبدو- شركاء سياسيين واقتصاديين مستقبليين. ولحسن الحظ فإن «التاريخ» قد خيب ظنه، لأنه لو كانت الجزائر قد سقطت في أيدي الأصوليين لكان على فرنسا أن تواجه كابول أخرى على بعد مئات الكيلومترات من مرسيليا»[٢].

---

(١) في الحالة الجزائرية من الصعب التمييز بين الاثنين، فبعض الصحف التي يقال عنها «معارضة» تشتهر بأنها قريبة من النظام.

(٢) م. صيفاوي (M. SIFAOUI)، فرنسا مريضة بالإسلاموية (La France malade de l'islamisme)، مرجع سابق، ص. ١٩٩-٢٠٠.

وعلى وتيرة خطاب السياسيين ذوي المخاوف من الإسلام (رشيد كاسي) أو النخب الدينية القريبة من مسجد باريس (دليل أبو بكر و صهيب بن الشيخ) فإن هؤلاء «المثقفين الجدد» الجزائريين يهاجمون من حين لآخر اليسار الفرنسي والأوساط التقدمية الأوروبية (منظمة ضرائب العمليات المالية من أجل مساعدة المواطنين، والفيدرالية الدولية لاتحادات حقوق الإنسان، ومنظمة العفو الدولية، وصحيفة اللوموند السياسية... إلخ)، التي يتهمونها بإتاحة فرص الحديث للإسلامويين ولمن يفترض أنهم يدافعون عنهم. فمخاوفهم من الإسلام تصب إذن في شكل من أشكال «المخاوف الكارثية»(sisitrophobie)[1]:

«أعتقد، وبلا أدنى شك، أن اليسار في فرنسا – وكذلك في أوروبا – قد خدم بواسطة سياساته مصالح الإسلاموية خلال هذه السنوات الأخيرة. فما كان ينبغي- بوجه خاص- الاستهانة بما هو محتمل من تأثير للنشطاء الإسلاميين، والمخاطرة بخلق المتاعب. وتيارات اليسار المتطرف تفعل ما هو أسوأ. فبعضها تحول إلى متحدث باسم الإسلاموية العالمية»[2].

---

(١) ولم يمنع هذا بعض هؤلاء المثقفين من العمل في صحافة اليسار، كحسان زيروقي، أحد السابقين في الحزب الطليعي اليساري في الجزائر (PAGS)، الصحفي في جريدة (L'Humanité).

(٢) م. صيفاوي (M. SIFAOUI)، فرنسا مريضة بالإسلاموية (La France malade de l'islamisme)، مرجع سابق، ص. ٢٠٠.

ولكن وراء لغة العاطفة التي تطلب إنقاذ الضحايا، توجد معركة أيديولوجية حقيقية تظهر في أفكارهم: إن كتّاب المقال الجزائريين «استئصاليون» يعلنون ذلك دون تحفظ: ففي يناير ١٩٩٢ برروا الإيقاف التعسفي للعملية الانتخابية في الجزائر، وذلك باسم الحفاظ على «الديمقراطية». واليوم يهاجمون بشكل منتظم كل من يتجرأ على نقد الانتهاكات الفظيعة لحقوق الإنسان التي يرتكبها الجيش الجزائري أثناء ما يجري من حرب أهلية[1]. وحدة خطابهم تشبه أحياناً تلك الحدة التي يحملها خطاب خصومهم السياسيين، أي الإسلامويين المتشددين:

«هذه المعركة التي حملت لواءها في الجزائر، سأواصلها في فرنسا، خاصة وأنا أرى أن الأصولية الإسلامية قد اتسع مداها بشكل خطير في الضواحي والأحياء الشعبية، وبصورة عامة داخل المجتمع المسلم الذي يبحث عن بوصلته الضائعة. وأنا أقود هذه المعركة لأنني أعرف طبيعة الأصولية الإسلامية، ولأنه ليس عندي أي شك في الأهداف التي يرمي إليها حاملو هذه الأيديولوجية [...]. والأسوأ هو أن تناول هذه المسألة يبدو - ولعدة أسباب - سطحياً، ومثيراً للضحك، إذ إنه لا يتصدى لأصل

(١) م. صيفاوي (M. SIFAOUI)، «من الذين يريدون تبرئة الأصوليين الجزائريين من جرائمهم؟» (Qui veut dédouaner les intégristes algériens de leurs crimes?)، مجلة (Marianne) من ١١ على ١٧ نوفمبر ٢٠٠٢.

الداء. إنهم يوصون بالعمل الأمني على أوسع نطاق، ولا يعيرون الاهتمام لمعالجة جذور المشكلة. ليس هناك تطبيق لأي سياسة قادرة على استئصال الداء. إنهم يفضلون تناول المهدئات على العلاج التام، أي اقتلاع جذور الداء»[1].

إن الأكثر خطورة في هذا النوع من الكتابة ليس فقط البعد النضالي والأيديولوجي، وإنما ادعاء العلمية فيه: فكل الكتاب هنا ينسبون لأنفسهم «الدراية الكاملة» بالظاهرة الإسلاموية وبأرضيتها «هنا وهناك»، في حين أن تناولهم للمسألة تظهر فيه الكثير من الثغرات؛ بل من الأخطاء الفاحشة عن المكونات الاجتماعية للزعامات والتنظيمات الإسلامية في فرنسا التي تكاد كلها، باستثناء تلك التابعة لجامع باريس الكبير (وهذه تقدم دائما بصورة مطمئنة)، تمزج في مصطلح «الإرهاب الإسلامي»[2]. وفوق ذلك فإن ما يدعيه هؤلاء الكتاب من الدقة في معالجة الوقائع والمعلومات، غالباً ما يخونه أسلوبهم الذي هو أقرب

(١) م. صيفاوي (M. SIFAOUI)، فرنسا مريضة بالإسلاموية (La France malade de l'islamisme)، مرجع سابق، ص. ٢٣ و ٢٨.

(٢) أخطاء في الحقائق تتعلق بتاريخ نشأة التنظيمات، والأسماء الصحيحة لزعمائها، ووسائل تمويلها، والمكونات الاجتماعية لأعضائها، وتأثيرها الفعلي على شباب الضواحي. وهذا الخلط يقودها إلى التصوير الكاريكاتوري والتبسيط (simplification)، بل إلى التبسيطية (simplisme).

لتقارير الخبراء البوليسيين والأمنيين (إدارة الأمن الوطني، الإدارة العامة للأمن الخارجي) منه للتحليل الاجتماعي:

«في حال افتراض حدوث عمل إرهابي ضد فرنسا، فيمكن أن نتخيل، ودون أن يجانبنا الصواب، أن الإرهابيين المعنيين يعيشون مسبقاً فوق التراب الفرنسي الآن، وأنهم ربما يعدون حالياً لفعلتهم هذه في شقة من الضواحي، بل وربما في قلب باريس [...]. وهنا يمكن أيضاً القول بأن كل الوسائل العسكرية، وكل الإمكانات التقنية التي تملكها فرنسا قد تظهر غير كافية تماماً لمواجهة هذا التهديد، لأن الأمر لا يتعلق بأخذ احتياطات ضد هجمات إرهابية، وإنما إقامة حاجز منيع يقف سداً أمام هذه الأيديولوجية الأصولية التي تمثل مصدراً لكل الأخطار»[1].

والأخطر أيضاً هو أن هؤلاء الكتاب يشتركون في أنهم جميعاً يلزمون الصمت التام حيال الاستغلال السيئ لجهاز الاستخبارات الجزائري لأعمال العنف التي تصدر من الحركات الإسلاموية، وهو استغلال مثبت وموثق الآن، سواء فيما يخص المذابح التي ترتكبها الجماعة الإسلامية

(١) م. صيفاوي (M. SIFAOUI)، فرنسا مريضة بالإسلاموية (La France malade de l'islamisme)، مرجع سابق، ص. ٣٨.

المسلحة (GIA) التي يتحكم فيها أمن الجيش[1]، أو اعتداءات عام ١٩٩٥ في فرنسا.

وأخيراً، فإن خطاب الصحفيين الجزائريين لا يساهم في تعميق فهم الواقع الإسلامي، وفهم منطق زرع الإسلاموية في فرنسا، ولكنه يلعب إلى أقصى درجة على لغة التهيؤات والرعب التي تتيح له- كوسيلة أخيرة- تبرير بقائهم «خبراء إعلاميين». وفي الأساس، من الممكن أن نتساءل عن المدى الذي قد يبلغه مفهوم المعركة ضد الإسلاموية في العالم (والمبدأ مشروع تماماً؛ وبعض كتاب المقال الجزائريين هؤلاء أوفياء له) دون أن يصل إلى حماية مفهوم آخر، هو خنق الحرية والديمقراطية الفرنسية باسم «النظام الأمني الجديد» في الأحياء الشعبية.

---

(١) ارجع بصفة خاصة إلى : «إني حانق لدرجة الموت على من هم مسؤولون» (J›en veux à mourir à ceux qui sont responsables)، لقاء مع الرائد هارون، آراء جمعها جان بول شانولو (Jean-Paul Chagnollaud)، في (Confluences Méditerranée)، عدد ٢٥، ربيع ١٩٩٨؛ وعن الاعتداءات في باريس، ارجع للبرنامج الوثائقي التلفزيوني «اعتداءات باريس، كان بالإمكان منعهم» (Attentats de Paris: on pouvait les empêcher) لجان باتيست ريفوار (Jean-Baptiste RIVOIRE) وروما‌ن إكار (R-main ICARD)، وعرض على قناة (Canal Plus)، في برنامج «٩٠ دقيقة» (90 minutes)، بتاريخ ٤ نوفمبر ٢٠٠٢.

الخاتمة

أبعد من المثالية المفرطة

من الصعب اختزال المخاوف المعاصرة من الإسلام في فرضية التحديث المستمر للصراع الأزلي بين الغرب المسيحي والشرق العربي الإسلامي، كما لو أن مشاهد الحروب الصليبية والجهاد تعيد تكرار نفسها[1]. إنها ترجع أيضاً وبقدر كبير لعملية لاشيء للدين فيها (العنصرية الجمهورية على نمط رينان)، بل ولسيادة العلمانية في مجتمعنا. وبهذا المعنى، فإن الحقبة الاستعمارية مثلت دون أدنى شك فترة مفصلية، حيث ظهرت المخاوف المؤسسية من الإسلام بوصفها إحدى أدوات العمل الرسمي في وجه السكان الأصليين من المسلمين. وعلى الرغم من ذلك لم تكن سياسة ثابتة ومستمرة للمستعمر، إذ كانت فترات التمييز الديني تتبعها من وقت لآخر تدابير مشجعة للديانة الإسلامية[2]. لذلك فإن «المخاوف الجديدة من الإسلام» والتي ظهرت في فرنسا منذ بداية ثمانينيات القرن الماضي لا يمكن فهمها فقط كانتشار آخر للعنصرية بين الشعب، والتي- بعد أن تبلورت تدريجياً حول المستعمر (le colonisé)، والمهاجر، و«الشاب

(١) إدجار ويبر (Edgar WEBER)، جورج رينو (Georges REYNAUD)، حروب الأمس الصليبية، جهاد اليوم، (Croisades d›hier, Djihad d›aujourd›hui) مرجع سابق.

(٢) فرانك فريجوسي (Franck FREGOSI)، «الإدارة الشعبية للإسلام في فرنسا: قضايا جيوبوليتيكية، ميراث استعماري و / أو منطق جمهوري» (La gestion publique de l›islam en France: enjeux géopolitiques, héritage colonial et / ou logique républicaine)، مجلة (Correspondance)، رقم ٥٠، منشورات (IRMC)، تونس، ١٩٩٨.

المغاربي» في الضواحي- أصبحت تركز اليوم على صورة الفرنسي معتنق الإسلام، أي تجسيد الخطر ببعديه الداخلي والخارجي[1]. في الواقع، إذا استطعنا ملاحظة نوع من التداخل ،أي نوع من تعاضد الخوف بين هذه التوجهات العنصرية المختلفة، فإن علينا الحذر من تأسيس استمرارية مباشرة وطبيعية بين التصورات عن الإسلام في الفترة الاستعمارية والتصورات عنه اليوم، كما لو أنها تنتج جميعها من ذات السلسلة التخيلية الفريدة[2]. أولا، لأن المخاوف الجديدة من الإسلام ليست ظاهرة وسط الشعب فقط، أي عنصرية «البيض الصغار» (racisme de petits Blancs)[3] الشاعرين بالتهديد لهويتهم بسبب الحراك الاجتماعي لأبناء المهاجرين الذين أصبحوا «من أبناء الوطن»، وإنما هي -أيضا وبقدر كبير- ظاهرة ثقافية وإعلامية، يمثل قادة الرأي المروجين الرئيسيين لها (كتاب الافتتاحيات الصحفية، فلاسفة، كتابا، جامعيين...). ثانيا،

---

(١) باسكال بلانشار (Pascal BLANCHARD)، نيكولا بانسل (Nicolas BANCEL)، من صاحب الأرض إلى المهاجر (De l›indigène à l›immigré)، دار نشر (Gallimard)، باريس، ١٩٩٨.

(٢) جان روبير هنري (Jean-Robert HENRY)، «مغاربة في فرنسا: غوص في الخيال الفرنسي» (Magrébins en France: plongée dans l›imaginaire hexagonal)، في يانيك ريش (Yannick RESCH) (إشراف)، عرف الاندماج؟ أبعاد وطنية تصورات رمزية (- Définir l›intégration? Perpectives nationales et représentations symboliques)، إكس إن بروفانس، منشورات (XYZ/ IEP)، ١٩٩٧، ص. ١٣٣-١٤٧.

(٣) إكزافييه تيرنيزيان (Xavier TERNISIEN)، «خطر المخاوف من الإسلام»، صحيفة (- Le Monde)، ١٢ مايو ٢٠٠٢. يورد المؤلف هنا عبارة (Pretty racism) هكذا في ثنايا النص للدلالة على هذا النوع من العنصرية. (المترجمان).

لأن موضوع الخوف ليس مركزاً على المسلمين العاديين - الذين هم أطياف شبحية داخل خطاب المخاوف من الإسلام - وإنما على «التهديد الإسلامي» المبني على العاطفة. وبهذا المعنى، وعلى الرغم من التناقض الظاهر، فإن منظري المخاوف الجديدة من الإسلام ليس لديهم مخاوف من الإسلام بقدر مخاوفهم من الإسلاموية (islamistophobes): فهم يزعمون أنهم لا يهاجمون الدين الإسلامي ومعتنقيه، وإنما المظاهر المنحرفة التي تشكلها - كما يعتقدون - الإسلاموية، والأصولية، والإرهاب الإسلامي. بل إنهم يبدون أحيانا بعض التعاطف مع المسلمين، ويطالبون باسمهم القيام بعملية اجتثاث جذرية لكل أشكال الأصولية والظلامية التي تهدد العالم. ويعتبرون حربهم «مشروعة» لأنها كونية، نافين عن أنفسهم الاتهام بالعنصرية، كونهم لا يسعون إلى استعمار المسلمين والسيطرة عليهم وإنما - ببساطة - إلى تحريرهم من أعدائهم المشتركين الذين يستغلون أجسادهم ووعيهم هنا وهناك.

ولكن ماذا لو كان كلود أمبير، و ألن فينكيلكروت، وألكسندر دل فال، و بيير أندريه تاجييف، وميشيل تريبالا، وأوريانا فلاتشي، وكل «الضمائر الأوروبية المستنيرة» التي تدين بقوة «الخطر الإسلاموي» داخل الجمهورية محقة في نهاية الأمر؟ وبتعريتنا لآليات المخاوف الجديدة، ألم نخطئ نحن أنفسنا، سواء من باب السذاجة أو المثالية العلمية، في الانبهار بموضوع بحثنا، وتلك الأعراض المعروفة في الأوساط الجامعية الفرنسية؟ والأسوأ، ألسنا نحن أنفسنا ناشرين لشكل من أشكال العنصرية المضادة من خلال محاولاتنا اللاواعية ربط المسلمين بهويتهم

الأصليــة؟ وباختصار، أليس مــن الممكن أن نكون نحن أنفســنا في واقع الأمــر خائفين جدا من الإســلام، نحــن «الوارثين الفعليين» للاستشــراق الغازي؟

إن الحجــج تصيب الهدف. فالفرضية مغرية، والشــك يســيطر لبعض الوقــت. ولكــن بصــورة أكثــر تحديــدا، إن «المســلمين»، و«الإرهابيــين الإســلاميين» الذيــن يشــير إليهــم مثقفونــا الإعلاميــون، ومتخصصــو الجيوبوليتيك وخبراء الأمن، ليس لهم علاقة مباشــرة بما يمكننا ملاحظته من خلال أبحاثنا ودراساتنا الميدانية، ولقاءاتنا مع المسلمين العاديين. إننا نستخدم ذات الكلمات (الإسلام، الإسلاموية، الأصولية، السلفية...)، ونحيــل غالبا إلــى ذات المنظمــات (القاعــدة، الإخوان المســلمين، اتحاد المنظمــات الإســلامية في فرنســا، مســجد باريــس...)، ونقــرأ أحيانا ذات الكتــب، ولــذات المؤلفــين (م. أركون، ب. لويــس، ج. كيبيل، م. روندينســون...) لكن، خلف المظاهر، نحن لا نتكلم عن ذات الشــيء. وهذا التنافر لا يرجع إلى شيء من عدم النزاهة العلمية أو فكرة الاستغلال ألأيديولوجــي مــن البعض أو الآخر، بقــدر ما هو اختلاف تــام في مقاربة الواقــع الاجتماعي. وهنا تكمن مشــكلة المثقفين الجدد ذوي المخاوف من الإسلام ومشكلة الخبراء الأمنيين: بالرغم من هوسهم المضاد للإسلاموية، وصراعهم العنيف ضد كل أشكال الظلامية الدينية، إلا أن الإسلام المعيش لا يهمهم. ما يحركهم هو الإسلام المتخيل و المزيف الذي يخدم معركتهم الأيديولوجية، ولا يمثل فيه المسلمون الحقيقيون سوى شخصيات خرساء وأطياف شبحية. إن الخطاب عن الموضوع الإسلامي ليس إلا منفذا لتصريف

احتقان فكري أكثر عمقا، ويكمن في الشعور المشترك بكينونة «الكبار الذين لا يستمع لهم أحد» في المجتمع الفرنسي: إنهم يدينون ويحذرون ويطالبون باحترام النظام في مواجهة «التهديد الإسلامي» الوشيك. ومع ذلك لا يبدو أن أحداً يأخذهم مأخذ الجد. ومن هنا ينتج خطاب يزعم «الواقعية» ويصب باستمرار في الميلودراما النرجسية.

إن خطاب هؤلاء المتخوفين الجدد من الإسلام يحمل في طياته تناقضا كبيرا لم نركز عليه بصورة واضحة إلى الآن. في الواقع، إن كل خطابهم التحذيري يقوم على الدعوة لإعادة تفعيل القيم الرئيسة للتضامن (الحرية، العلمانية، الديمقراطية...) وتحريك «الطاقات الجمهورية» في مواجهة العودة القوية للتجمعات الفئوية والأصوليات الدينية. ولكن في ذات الوقت، هذه الدعوات المتكررة «لثورة وطنية وجمهورية» تقوم على تشهير مستمر بالمؤسسات، والنخب السياسية، والأحزاب، والمنظمات التي من المفترض أن تقوم بدور المؤازر للمواطنين العاديين: لا يوجد شيء يمكن الرضا عنه من وجهة نظرهم. إنهم ينكرون وقوعهم تحت تأثير أي فكر تدميري ويحتجون بقولهم إنه «يجب تحليل ومناقشة عدم الرضا الذي يشعر به كثير من الفرنسيين، والذين ليس أمامهم سوى الاستفتاء العام (suffrage universel) للتعبير عنه. إننا نشعر بالقلق حيال اللامبالاة المتنامية للنخب التي تركت الشعب يواجه مصيره – انعدام الأمن العام والأمن الاجتماعي– من أجل أن يقضي بفاعلية على أشكال

القلق التي يعيشها »[1] . إننا لا نشك في مصداقية مثل هذا النقد : فهؤلاء المثقفون يعتقدون تماما أن الجمهورية تعيش أزمة ، وأن لهم رسالة تتمثل في إنقاذها من المخاطر الجديدة التي تتهددها . ولكن هل فكروا لحظة واحدة فقط في النتائج السيئة لهذا الخطاب التحذيري ؟ هل يعتقدون فعلا في قدرته على التأثير في المواطنين العاديين ؟

وعلى العكس ، قد نكون أكثر ميلا إلى تأكيد احتمالية أن يثمر ذلك عن تأثير مثبط للرأي العام ، داعم لأشكال عدم الارتباط السياسي ، والنقابي ، والتنظيمي الملاحظ سلفا في كثير من قطاعات المجتمع الفرنسي . إن الخطاب التدميري- الذي لا تمثل المخاوف من الإسلام سوى أحد مكوناته- يمثل في نهاية الأمر صيغة أعطيت الصبغة الثقافية لـ«الكل فاسد» ، كما تعبر عن ذلك التيارات الشعبية . وهنا نلمس التناقض الرئيس الذي يتضمنه الخطاب ذو البعد الأخلاقي : لكي يكون له وجود ، يحتاج هذا الخطاب إلى أن يدين . لكنه بإدانته هذه يشارك بذات الفعل في تفكيك ونزع المشروعية بصورة أكبر عن المؤسسات والقيم التي من المفترض أن يقيم عليها «تجمعه السياسي الجديد» .

على هذا الصعيد ، يمكن أن نتساءل أيضا إذا كنا نعيش فعلا في داخل ذات المجتمع وفي ذات العصر : فرنسا في بداية الألفية الثالثة . فقراءة

---

(١) ألن فينكيلكروت (Alain FINKIELKRAUT) ، مارسيل قوشيه (Marcel GAUCHET) ، بيير مانن (Pierre MANENT) ، فيليب موري (Philippe MURAY) ، بيير-أندريه تاقييف (Pierre-André TAGUIFF) ، شمويل تريجانو (Shmuel TRIGANO) ، و بول يونيه (Paul YONNET) ، «بيان في سبيل التفكير الحر» (Manifeste pour une pensée libre) ، مرجع سابق .

التحليل المتشائم جدا، للمثقفين ذوي المخاوف من الإسلام، توحي بأن الجمهورية الفرنسية قد تكون انهزمت خلال الخمسة عشر عاما الماضية (سنوات ميتران)، من قبل التعددية الثقافية للدولة، ومن قبل مأسسة الأقليات الدينية والعرقية. بل يذهب البعض إلى القول بتشكيل جماعات ضغط (lobbies) عرقية على النمط الأمريكي. وهنا أيضا يمكن أن نلاحظ هذه العلاقة، الخيالية تماما، بين المجتمع الفرنسي وأشكال العمل العام للدولة. ولنعلم أن فرنسا الرسمية لم تطبق يوماً سياسة تقوم على التمييز من شاكلة «الفعل الإلزامي» (affirmative action)[1]، وأنها كانت ترفض دائما سياسة الحصص العرقية في التشغيل، ولم تقدم أبدا أي تنازلات فيما يتعلق بالتمثيل السياسي للأقليات الدينية والعرقية. وإذا اتفقنا مع بعض هؤلاء الكتاب على أن بعض السياسيين الفرنسيين يميلون أحيانا إلى اللعب بورقة الأقليات على الصعيد المحلي (اليهود، المسلمين، الأرمن...) في سبيل الحصول على بعض المكاسب الانتخابية، إلا أنه من الواضح أن هذه المحاولات لم تنته أبدا إلى إقامة أي شكل مؤسساتي للأقليات لفائدة المسلمين أو أي مجموعة عرقية دينية أخرى. وإنشاء المجلس الفرنسي للدين الإسلامي، على سبيل المثال، تحت رعاية وزير الداخلية، ليس له من هدف آخر غير ما هو نفعي وأمني،

(١) سياسة العمل الإلزامي (affirmative action) لم تعد تمثل مرجعا للعمل العام في الولايات المتحدة الأمريكية. انظر جولي تيرميز (Julie THERMES)، تطور وانهيار العمل الإلزامي (Essor et déclin de l'affirmative action)، باريس، منشورات (CNRS)، ١٩٩٩.

دون أن يكون له بعد تأسيس سياسي للأقلية المسلمة. ونجد مدوناً في سجل توصيف مهامه، أن الأمر يتعلق بإدارة تقنية تقوم بتنظيم أمور هذا الدين على المستوى الوطني والجهوي. وليس لدى الشخصيات المهمة والمنتخبين المؤهلين للعمل فيه أي صفة تمثيلية لكل مسلمي فرنسا، وإنما يمثلون فقط «المترددين» على أماكن الصلاة والمساجد الكبيرة. وعلى الرغم من هذه المهمة المحددة والموجهة تماماً، إلا أن غالبية الفلاسفة الجدد، وكتاب الافتتاحيات الصحفية، وخبراء الخوف قد شهروا بهذا المجلس المشترك، الذي يتيح تجربة شكل تنظيمي مؤسسي مبتكر، دون أن يكون في ذلك سبب للتشكيك في مبادئنا الدستورية (مبدأ فصل الدين عن الدولة). من المرجح أن هذه «الضمائر المستنيرة» قد تفضل الاستبدادية المؤسساتية، الحاملة للشكوك والخفايا داخل الأقلية المسلمة على التعبير الرسمي والشفاف بين ممثلي هذه الديانة وسلطات الدولة. إن جان بيير شوفينمان ونيكولا ساركوزي يبدوان- في نظر بعض هؤلاء المثقفين الإعلاميين- مقوضين للنظام الجمهوري: يقول جان دانييل «في كل الحالات، إن المبدأ الذي يقتضي إعطاء قيادات دينية ما مسؤولية تجاه جماعتها مضاد لبعض مفاهيم النظام الجمهوري. وفي أضعف الحالات، هذا التصور يحمل داخله فكرة أننا سنضع سياسة لا تخدم القيم الكلية ولكن تهدف لمراعاة الحساسيات (أو الأفكار المسبقة) تجاه اليهود والمسلمين الذين لا يستطيعون فصل الدين عن السياسة ولا فصل الولاء

للجمهورية عن الانتماء لمؤسسات دينية خارجية»[١].

وتبقى بالطبع المسألة التي لا يمكن تجاهلها، وهي مشكلة العنف والإرهاب الإسلاموي. إن تفجيرات نيويورك وكراتشي، أو التفجيرات الأكثر قربا منا وهي تفجيرات الدار البيضاء في عام ٢٠٠٣، ليست وليدة خيال ذوي المخاوف من الإسلام أو «ذوي المخاوف من الإسلاموية». إنها فعلا أحداث إرهابية قامت بها مجموعات تعلن انتماءها للإسلام وتبرر بقوة طرح مسألة العلاقة بين الدين الإسلامي واستخدام العنف لغايات سياسية. وهنا أيضاً تتطلب صعوبة المشكلة عملية تحليلية دقيقة تأخذ في الحسبان تنوع «كيفية أن تكون» مسلما في فرنسا وفي العالم: فهذه الكيفيات لا يمكن اختزالها في متغير وحيد هو «الإسلام». قبل فترة قصيرة طرح أحد الصحفيين في نيويورك على ملاكم القرن، محمد علي كلاي سؤالا يقول فيه: «كيف تشعر بفكرة أنك تتشاطر ذات الدين مع المتهمين الذين أوقفتهم المباحث الفيدرالية...؟ فكان رد محمد علي: وأنت كيف تشعر بفكرة أن هتلر يتشاطر معك ذات الدين؟[٢] «غير أن الأمر حقاً، هو أنه حتى لو لزم الصحفيون والمثقفون الإعلاميون ومتخصصو الجيوبوليتيك الحذر في استخدام اللغة، إلا أنهم يختصرون تعقيدات صيغ الانتماء لهذا الدين في «نظام أوحد» (**Système unique**) يرتبط فيه كل

---

(١) الكلمة الافتتاحية لجان دانييل (Jean Daniel) «نفس خطأ نابليون» (La même erreur que Napoléon)، مجلة (Le Nouvelle Observateur)، عدد ٢٠٠٦، ١٧ أبريل ٢٠٠٣.

(٢) تذكره سيلفن سيبل (Sylvain CYPEL)، صحيفة (Le Monde)، ٦ أكتوبر ٢٠٠١.

عنصر بالعناصر الأخرى، وهم بذا يرددون ذات القراءة الشمولية لبعض الأصوليين المسلمين. ومثل هذا الموقف المعياري يجعل الباب مفتوحا على مصراعيه أمام أنواع الخلط والتفسيرات الجانحة المحتملة: فالمسلم الهادئ في مسجد بوردو، أو الفتاة المحجبة في المرحلة المتوسطة بمدينة ليل يصبحان عناصر مرئية لمجموعة تخلق المشاكل، وهذا يبرر تماماً النظر إليهما في شك مستمر تحت غطاء «اليقظة الجمهورية». وعليه فإن انزلاق الصراع الفكري من مكافحة الإرهاب الإسلامي إلى المخاوف من الإسلام يصبح ممكناً.

واليوم لم يعد الخطاب الذي يقيم معارضة مستمرة بين « الإسلام المعتدل» و « الإسلام المتشدد» فاعلا. إنه يدور في فراغ، لأنه لم يعد يتيح فهم التطور المثير للقلق للشبكات الإرهابية على الساحة العالمية. فظاهرة العنف هذه تمثل تحديا حقيقيا للمعرفة التي يجب أن تحثنا على تجاوز الأحكام المسبقة والتصورات النمطية عن الإسلام والمسلمين، وتأخذنا بعيدا عن التسطيح البسيط.


ملحق

وثيقة : منطق الخوف

«الإرهاب الدولي»

افتتاحية كلود إمبير (Claude Imbert) ، مجلة (Le Point) ، الأول من نوفمبر ٢٠٠٢

« إن اتخاذ موقف ضد هاجس صراع الحضارات ، لا يعني أن الحل يكمن في تجاهل هاجسنا الخاص . بل على العكس ، إن حزمنا هو الذي سيقنع الإسلام المعتدل ، الذي لا يزال مبهماً ، بأن يحارب بنفسه مخاوفه الخاصة . فلنساعده ، كان الله في عونه ! »

«إن صراعات المستقبل ستكون صراعات حضارات» . بسبب تجرئه على القول بهذا التشخيص ، شغل الأستاذ الأمريكي المرموق صمويل هنتينجتون الرأي العام منذ العام ١٩٩٨ . فنظرته أراحت أولئك الذين يشاهدون صعود إسلام ظلامي معاد للغرب . أما فيما يتعلق بساستنا فإنهم يخشون هذا التوقع السيئ الذي يحمل في ذاته مقومات تحقيقه .[1]

---

(١) يورد الكاتب عبارة التحقق الذاتي للنبوءة باللغة الإنجليزية بين قوسين (Self-fulfing prophecy) . ونضعها هنا حتى لا يختلط الأمر بين إضافات المؤلف وإضافات المترجمين . (المترجمان) .

«إن الإسلاموية ليست الإسلام» : يطرق آذاننا مباشرة هذا التحذير المسالم. فمن المؤكد أن الإسلام الذي يعتنقه مليار شخص لم يعلن قط الحرب على الغرب. لكن الإرهاب الإسلاموي ومن خلال تجذره في التعصب، وانتشاره على مستوى العالم، ومجازره ضد المدنيين، واستخدامه لأسلوب الهجمات الانتحارية، والصدى العالمي لجرائمه، هذا الإرهاب، ومهما كان الرأي حوله، يطبع في الأذهان إحساساً واسع الانتشار بحرب دينية خفية. وتأتي المتفجرات إضافة لأفكار هنتينجتون فتزيد من حرارة قارئي الطالع المتشائمين [1]، وتلهب المشاعر.

ومنذ هجمات نيويورك وصولا إلى احتجاز الرهائن في موسكو، نجد أن النتيجة عدد كبير من الجرائم المؤثرة المتعددة، التي تحمل جميعها البصمة الإسلاموية. مجزرة السياح الأجانب الغربيين في بالي، واغتيال أحد عشر مهندسا فرنسيا في كراتشي، والهجوم على ناقلة نفط فرنسية في اليمن، وفي عملية الاختطاف الشيشانية في موسكو، والمذابح الروتينية لجزاري

(١) يستخدم الكاتب هذه المفردة للدلالة على من يعتبرهم أنصار هذا التوجه. وكلمة (Cassandre) ترجع لليونانية (kassandros) التي تحيل على اسم ابنة ملك طروادة في أساطير اليونان التي اختصها أبولون (A-pollon) بقدرة معرفة المستقبل. لكنها امتنعت عنه فحكم عليها بأن كل ما تقوله عن المستقبل لن يصدقه أحد. (المترجمان).

الجزائر، في كل هذا لا نجد منظمة مبرمجة تنتمي للأب الروحي ابن لادن، لكن ما خفي أسوأ: ذلك أننا نجد في كل مكان ذات السعار الذي يعود بجوهره إلى القرآن، وقد وضعت عليه بالأحرف الأولى علامة موحدة لتجمّع من الرعب يعمم على الكون. إنه إرهاب عالمي غير مسبوق.

[...] وفي وجه هذا الإرهاب العالمي، ما زال الغرب لا يظهر أي مقاومة موازية. إن جبهة الغرب ينخر فيها الشعور بالذنب، وتفت في عضدها المثالية المفرطة، ونضوب القيم التي كانت ندية في الماضي وكان يمجدها «إله التقدم»، الذي فقد مركزه اليوم. في مواجهة التزمت الشديد لجند الله، تقدم مجتمعاتنا آراء متساهلة. ولخوض المعركة الوحيدة التي يجدر بنا خوضها، وهي معركة الحرية، فإننا نحس بثقل الجسارة، وبعبء الحقوق المكتسبة، وبفقدان الواجبات التي هجرت.

في مقابل هذا يمكننا أن نعتمد على التذمر الذي ينمو باستمرار، والذي يغذيه شح الموارد ونقص الممتلكات والحريات المتزايد في العالم، وهو قدر كل الشموليات. ونعلم جميعا أن تضييق الخناق عليها سيثبت أقدام ديمقراطياتنا. إن تاريخا كاملا بدأت ترتسم ملامحه، وهو لا يزال في بداياته.

على امتداد العالم العربي الإسلامي، يبرر لفرنسا مشروعية الحفاظ

على مكاسـبها الموروثة من العالم العربي. لكن، فضلاً! دون الاعتقاد أن بعض التسامح مع الغموض العربي، أو مع تطلعات الإسلام الفرنسي ضد التوافـق العلماني يمكن أن تكسـبانا رضا هذه التيـارات الخانقة. بل على العكـس، إن دعمنا المعلن للحداثيين العرب - وقواهم العلمانية، وتحرير المرأة - هو ما يحتمه علينا إرثنا العالمي المستمد من عصر التنوير.

[...]«إن اتخـاذ موقف ضد هاجس صراع الحضارات، لا يعني أن الحل يكمـن في تجاهل هاجسـنا الخاص. بل على العكـس، إن حزمنا هو الذي سـيقنع الإسلام المعتدل، الذي لا يزال مبهماً، بأن يحارب بنفسه مخاوفه الخاصة. فلنساعده، كان الله في عونه!»

وثيقة: نداء «مسلمين علمانيين» ضد الأصولية الإسلامية في فرنسا

نداء مايو

نداء للمواطنين المسلمين في فرنسا المحبين للسلام والعدل والحرية والعلمانية

إن حريتنا في الوعي بما حولنا، وحريتنا في التعبير هما الآن موضع تساؤل. لم يعد بإمكاننا أن نصمت. إن سكوتنا يجعلنا شركاء في مؤامرة الاستدراج نحو أهداف ظلاميي الإسلام. يجب أن نقوم بمسؤوليتنا من أجل تجنب الشراك المنصوبة أمام «الجمهورية»، والعلمانية، والإسلام والمسلمين. إن واجبنا هو أن نجند أنفسنا، وأن نعمل للوقوف في وجه المحاولات التي يقوم بها من يريدون فرض أصولية إسلامية مستوردة من الخارج، ويبغون استخدام الإسلام والمسلمين أدوات لغايات سياسية.

إن علينا التحرك من أجل فهم حديث للإسلام، مواكب للعصر وقوانين وقيم الجمهورية، خاصة العلمانية والمساواة في الحقوق المطلقة بين المواطنين من الجنسين.

إن علينا التحرك من أجل حماية فكرة الإرادة الحرة والحرية الفردية.

إن علينا التحرك من أجل محاربة كل أشكال الأصولية والظلامية.

إن علينا التحرك من أجل تشجيع الفرنسيين من أصول مهاجرة على الاندماج داخل الأمة، وتطوير مشاركتهم الفاعلة في الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والعامة والسياسية.

إن علينـا التحرك من أجل العمل الجماعي نحو صياغة حديثة للإسـلام تشجع على فتح حوار يناقش جوهر الإسلام وضرورة مواكبته للواقع.

وأخيـراً، إن علينا التحرك من أجل تشـجيع الحوار والتقارب المحترم مع الأديان الأخرى.

إننا ندعو- إذن - الأغلبية الصامتة من المسلمين في فرنسا، من المتدينين وغيرهـم، والذين تكمم أفواههم دائماً عـن طريق الضغوط والتخويف، لأن ينهضوا- أخيراً- من أجل إسماع صوتهم وطرح أرائهم بقوة.

ولا ننسـى أن نديـن كل ثقافـة تدعو للكراهيـة وللعنف باسـم الدين الإسـلامي في صورة تعكس العقلية الرجعية لأصحابها. إن الجدل العبثي حول الحجاب الإسـلامي الذي هو الشعار الحقيقي للإسلاموية السياسية، وكذلك التشكيك في العلمانية الفرنسية، يجب ألا يخفيا عن أنظارنا أن الأمر يستدعي من فرنسا ومن الفرنسيين رفض ومقاومة غرس أيديولوجية خطيرة ومنحرفة فوق ترابنا، أيديولوجية تقتل الجمهورية، قبل كل شيء آخر. هـذه الأيديولوجية تنشـرها حركات قامت، تحت غطـاء التمثيلية (représentativité)، بالاسـتحواذ على تمثيل مسـلمي فرنسـا. ونحن بوصفنا مسلمين علمانيين ذوي ارتباط عميق بفرنسا، أول ضحايا الخلط والتلاعـب بالناس. فمن واجبنـا تجاه أنفسـنا -إذن- أن نكون الطليعة، وأول من يتحرك ومن يلتزم بالدفاع عن الجمهورية، وعن العلمانية، وعن حق المواطنة والحرية الدينية للجميع، بلا تخاذل ولا وهن.[1]

(١) انظر: حركة المسلمين العلمانيين في فرنسا، منشور في مجلة (Marianne)، عدد ٣١٥، من ٥ إلى ١١ مايو ٢٠٠٣.

إن الحياد في الترجمة دفعنا إلى أن نقدم النص الأصلي على وضعه وتسمية الأشياء بأسمائها على الرغم مما في بعض هذه الآراء أو المسميات من تعبيرات صادمة غير مقبولة ولكن هذا هو واقعها وفق منظورهم، وأي تخفيف للعبارة أو تعديل للمسميات فضلاً عن خيانة أمانة الترجمة تؤدي إلى عدم نقل صورة الإسلام من خلال رؤيتهم بصورة دقيقة والمهم هو أن نلقي الضوء على مخاوفهم وأفكارهم حتى نعرف كيف ينظر الآخرون إلينا وكيف يفكرون.

